الرقابة وتنمية المجتمع في ضوء القرآن الكريم

تأليف الدكتور

خالد عبد الحميد محمد محمود الحوالي

مدرس التفسير وعلوم القرآن بكلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة

جامعة الأزهر

المقدمة

الحمد لله المبتدئ بحمد نفسه قبل أن يحمده حامد .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك الحق المبين .

وأشهد أن سيدنا محمداً عبد الله ورسوله ﷺ إمام العلماء وسيد المتقين، الذي كان خلقه[1] ووصيته[2] وميراثه[3] القرآن .

اللهم صل وسلم على نبينا الأمين ما اختلف المِلَوَانِ[4] وتعاقب الجديدان[5] وعلى آله وأصحابه والتابعين له إلى يوم الدين بإحسان . وبعد،،،

الأمة التي تروم نهوضا وتقصد حضارة تأخذ بأحد أمرين:

إما النظر في تاريخ حضارتها الذاتية، كيف كان ؟

وإما النظر في تاريخ حضارات الأمم، كيف نهضت ؟

وأمتنا ذاتية الحضارة، أعني أنها تملك المقومات التي نهضت بها وبالأمم حولها من ذي قبل، لكنها تراجعت عن القيادة حيناً من الدهر، وهي الآن تأخذ رويداً مكانها، لأنها

---

(١) سأل سعد بن هشام ﷺ عائشة (رضي الله عنها) فقال : يا أم المؤمنين أنبئيني عن خلق رسول الله ﷺ ؟ فقالت : ألست تقرأ القرآن ؟ فقال لها : بلي ، قالت : فإن خلق رسول الله ﷺ كان القرآن". ينظر: صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض ح رقم (١٣٩).

(٢) قال عبد الله بن أبي أوفي : " أوصي رسول الله ﷺ بكتاب الله ﷻ" . ينظر: صحيح البخاري كتاب الوصايا باب وصية الرجل مكتوبة عنده ح رقم [٢٧٤٠] ، وصحيح مسلم كتاب الوصايا باب الوصية لمن ليس له شيء يوصي فيه ح رقم [١٦٣٤].

(٣) قال ابن عباس (رضي الله عنهما) :"ما ترك النبي ﷺ إلا ما بين الدفتين ". ينظر: صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن باب من قال : لم يترك النبي ﷺ إلا ما بين الدفتين برقم [٥٠١٩].

(٤) **المَلَوَانِ**: الليل والنهار الواحد مَلاّ، وقيل : طرفا النهار . ينظر: مختار الصحاح للرازي مادة (ملل) ص(٦٣٤) تحقيق : محمود خاطر ط/ مكتبة لبنان ناشرون ١٤١٥ هـ/١٩٩٥م.

(٥) **الجديدان** : الليل والنهار وكذا الأجدان ، وذلك لأنهما لا يبليان أبداً . والتحقيق أن نقول : مدة بقاء الدنيا. ينظر: مختار الصحاح مادة (جدد) ص(٩٥) ، ولسان العرب لابن منظور مادة [جدد] ١١١/٣ ط/ دار صادر . بيروت الطبعة الثالثة ١٤١٤ هـ.

أبداً تملك السبب الرئيس في نهضتها وهو القرآن الكريم، وقد وعينا من تاريخ نهضتنا أن العرب لا يكون لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة[٦] .

فحضارتنا لا تحيا إلا إذا تفاعلت مع الروح الذي يحي مواتها وهو القرآن: چأبببپپچ [الشورى: ٥٢] ، والروح من آثارها الحياة والنمو القوة .

وهذه عناصر تفتقر إليها أي حضارة، إذا الحضارة كائن حي يجري عليه ما يجري على سائر الكائنات، وأراد الإسلام لحضارته حياة خاصة، لا حياة ينمو معها أسباب هلاكها، إذ ليس كل نمو حياة، فحياة خلية السرطان هلاك وفناء، لذا زودنا القرآن بمناعة متعددة الحصون لتحمي الجسد من أغلال الفساد وعطن المفسدين، وجعل قوام تلك المناعة كل ما يعتمد على إيقاظ الضمير وتطهير القلوب، والوصول إلى أعماق النفس الإنسانية لإثارة نوازع الخير والأشواق للكمال والمجد، وفي هذا صلاح للفرد والمجتمع، وصدق الله تعالى: چههههئئئكككچ [الرعد: ١١] .

وحياة الأمة لا تكون بلا عمل متقن مستمر ولا يكون ذلك إلا مع رقابة، ولا رقابة أنجع من أساليب رقابتنا القرآنية، وتاريخ أمتنا يشهد بذلك، فقد تحولنا من أمة تتساقط رؤوسها في حروب تطاول زمنها ثمانين عاما كحرب البسوس وحرب داحس والغبراء من أجل جمل وناقة، إلى أمة يشق الخمر طرقها من كثرة ما سكبه الصحابة فيها، فعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب بالمدينة قال: {يا أيها الناس إن الله تعالى يُعرِّض بالخمر، ولعل الله سينزل فيها أمراً، فمن كان عنده منها شيء فليبعه ولينتفع به}، قال ﷺ: فما لبثنا إلا يسيراً حتى قال النبي ﷺ: {إن الله تعالى حرم الخمر، فمن أدركته هذه الآية ـ أي: قوله: چأببپپپپپپپٺٺچ [المائدة: ٩٠].

(٦) مقدمة ابن خلدون ٢٨٩/١ ط/ دار يعرب تحقيق :عبدالله محمد الدرويش ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

وعنده منها شيء فلا يشرب ولا يبع }، قال ﷺ: فاستقبل الناس بما كان عنده منها في طريق المدينة فسفكوها [٧] .

وما هذه الطاعة وذلك الامتثال والتحول إلا لما حاطهم به الإسلام من رقابة تنزع رغائبهم وتصوغها صياغة جديدة حسب ضوابط القرآن، وقد وجدنا الرجل يقترف الخطأ فيذهب لرسول الله ﷺ معترفاً به، بل يقدم نفسه للموت ليتطهر من ذنبه بسبب هذه الصياغة القرآنية، وقد كانت الحمية والأنفة من قبل تدفعهم للقتال بلا سبب، بل كانوا يمدحون أنفسهم بذلك:

لَا يسْأَلُون أَخَاهُم حِين يندبهم ... فِي النائبات على مَا قَالَ برهانا[٨]

فأصبحوا والمجتمع بأسره يقاوم عوج الأفراد وخروجهم عن الجادة بتلك الرقابة التي غرسها القرآن في النفوس، وجعلها على الأفراد كالدائرة تنداح وتضيق حسب حجم الخطأ وتأثيره .

ولأثر الرقابة الكبير في تقويم أحوال العباد، وإتقان أعمالهم وأقوالهم، وما يورثه ذلك من بناء مجتمع قوي ناهض وحضارة مؤثرة، قصدت توجيه الأنظار نحوها في بحث جعلت عنوانه: **الرقابة وتنمية المجتمع في ضوء القرآن الكريم**

وقد نظمت صفوف هذا البحث في مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة .

المقدمة: وتشمل أهمية الموضوع وخطة البحث فيه .

التمهيد: وتحدثت فيه عن القيم السائدة في المجتمعات وأثرها في الأفراد .

المبحث الأول: ماهية الرقابة، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الرقابة في اللغة، ومواردها في القرآن الكريم .

المطلب الثاني: مفردات قريبة الدلالة في القرآن الكريم من الرقابة .

---

(٧) صحيح مسلم كتاب المساقاة باب (١٢) تحريم بيع الخمر ح رقم (١٥٧٨).

(٨) البيت لقريط بن أنيف الْعَنْبَرِي . ينظر: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب للبغدادي ٤٤١/٧ تحقيق وشرح : عبد السلام هارون ط/ مكتبة الخانجي القاهرة الطبعة الرابعة ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م .

المطلب الثالث: تحرير معني الرقابة .

المبحث الثاني: أنواع الرقابة في القرآن الكريم . وفيه مطالب:

المطلب الأول: الرقابة العليا .

المطلب الثاني: الرقابة النفسية .

المطلب الثالث: الرقابة العلمية .

المطلب الرابع: الرقابة المجتمعية .

المبحث الثالث: الصور القرآنية لعاقبة الرقابة: وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الصور الهالكة .

المطلب الثاني: الصور الناجية .

الخاتمة . أسأل الله حسنها .: وتشمل أهم النتائج، وذيلت البحث بالفهارس .

والله تعالى الموفق، وهو الهادي إلى سواء السبيل .

التمهيد

القيم السائدة في المجتمعات وأثرها في توجيه الأفراد

"الانسان مدني بطبعه"

كتبها الحكماء في كتبهم، ومعناها: أنه لا يمكن حياة المنفرد من البشر، ولا يتم وجوده إلا مع أبناء جنسه، وذلك لما هو عليه من العجز عن استكمال وجوده وحياته، فهو محتاج إلى المعاونة في جميع حاجاته أبداً بطبعه[٩]" فالإنسان مفتقر في إقامة كيانه المادي والأدبي إلى غيره، فهو يؤثر ويتأثر بمن حوله، وهذا التأثر التبادلي أو التجانس ينشأ تلقائياً وبشكل لا شعوري كنتيجة لتَكيّف الأفراد[١٠]، وفق منظومة قِيَمِيّةٍ تواطؤا عليها وتعايشوا من خلالها، فالقيم التي يتوافق عليها المجتمع هي التي تحدد مناط المعروف والمنكر، والخير والشر، والحسن والقبح .

ويتضح من تراث البشرية أن القيم التوافقية السائدة في المجتمع هي التي تفرض عليه مفهوم الخلق، فمثلاً التماثيل اليونانية تجسم العورات المغلظة ولا يتناهون فيما بينهم عنه، بينما نري تماثيل الحضارة المصرية القديمة قد توارت فيها العورات، وكلا الحضارتين وثني، إلا أنه لاختلاف القيم السائدة في المجتمعين اختلفت نظرة الأفراد للحُسن والقبح والمعروف والمنكر .

والقرآن . باعتباره تاريخ للبشرية في سيرها إلى الله تعالى . ذكر لنا بعض المجتمعات التي توافق أهلها على قيم وأفكار منكرة عقلاً وشرعاً إلا أنها طابت بها نفوسهم، واستقرت بها حينا أيامهم .

فمجتمع قوم لوط ﷺ ظهرت فيه الفاحشة من غير نكير منهم، بل كانوا يهرعون إليها، والتعبير القرآني يبين أن أفراد ذلك المجتمع توافقت أفكارهم على قبول هذه الفعلة حتى وصل قبولها إلى زوج لوط ﷺ نفسها فكانت من الغابرين قال تعالى: چٹٹٹٹڤ

(٩) مقدمة ابن خلدون٢/١٥٩.

(١٠) راجع أسس علم الاجتماع د/ حسن شحاته سعفان ص(٢٦٩) ط/ دار النهضة العربية الطبعة السادسة ١٩٦٥م .

ﭽ [النمل: ٥٧]، قال مجاهد ﷺ: "الناجون لوط وابنتيه"[١١]، فهذه القلة الناجية تبين أن التوافق بين أعضاء المجتمع له أكبر الأثر في النهوض بتطبيق الأفعال وإن كانت منكرة طبعاً وعقلاً، فهذه الفعلة القبيحة وإن ذمها القرآن ليبين حرمة ما ارتكبوه، لكنه وضع أيدينا على قيمة التوافق في قيمة أو فكرة أو فعلة .

على الجانب الآخر ذكر القرآن قصة الثلاثة الذين خُلفوا وتوبتهم قال تعالى:

ﭽﭑﭒﭓﭔﭕﭖﭗﭘﭙﭚﭛﭜﭝﭞﭟﭠﭡﭢﭣﭤﭥﭦﭧﭨﭩﭪﭫﭬﭭﭮﭯﭰﭱﭲﭳﭴﭵﭶﭷﭸﭹﭺﭻﭼﭽﭾﭿﮀﮁﮂﮃﮄﮅﮆﮇﮈﮉﮊﮋﮌﮍﮎﮏﮐﮑﮒﮓﮔﮕﮖﮗﮘﮙﮚﮛﮜﮝﮞﮟﮠﮡﮢﮣﮤﮥﮦﮧﮨﮩﮪﮫﮬﮭﮮﮯﮰﮱﯓﯔﯕﯖﯗﯘﯙﯚﯛﯜﯝﯞﯟﯠﯡﯢﯣﯤﯥﯦﯧﯨﯩﯪﯫﯬﯭﯮﯯﯰﯱﯲﯳﯴﯵﯶﯷﯸﯹﯺﯻﯼﯽﯾﯿﰀﰁﰂﰃﰄﰅﰆﰇﰈﰉﰊﰋﰌﰍﰎﰏﰐﰑﰒﰓﰔﰕﰖﰗﰘﰙﰚﰛﰜﰝﰞﰟﰠﰡﰢﰣﰤﰥﰦﰧﰨﰩﰪﰫﰬﰭﰮﰯﰰﰱﰲﰳﰴﰵﰶﰷﰸﰹﰺﰻﰼﰽﰾﰿﱀﱁﱂﱃﱄﱅﱆﱇﱈﱉﱊﱋﱌﱍﱎﱏﱐﱑﱒﱓﱔﱕﱖﱗﱘﱙﱚﱛﱜﱝﱞﱟﱠﱡﱢﱣﱤﱥﱦﱧﱨﱩﱪﱫﱬﱭﱮﱯﱰﱱﱲﱳﱴﱵﱶﱷﱸﱹﱺﱻﱼﱽﱾﱿﲀﲁﲂﲃﲄﲅﲆﲇﲈﲉﲊﲋﲌﲍﲎﲏﲐﲑﲒﲓﲔﲕﲖﲗﲘﲙﲚﲛﲜﲝﲞﲟﲠﲡﲢﲣﲤﲥﲦﲧﲨﲩﲪﲫﲬﲭﲮﲯﲰﲱﲲﲳﲴﲵﲶﲷﲸﲹﲺﲻﲼﲽﲾﲿﳀﳁﳂﳃﳄﳅﳆﳇﳈﳉﳊﳋﳌﳍﳎﳏﳐﳑﳒﳓﳔﳕﳖﳗﳘﳙﳚﳛﳜﳝﳞﳟﳠﳡﳢﳣﳤﳥﳦﳧﳨﳩﳪﳫﳬﳭﳮﳯﳰﳱﳲﳳﳴﳵﳶﳷﳸﳹﳺﳻﳼﳽﳾﳿﴀﴁﴂﴃﴄﴅﴆﴇﴈﴉﴊﴋﴌﴍﴎﴏﴐﴑﴒﴓﴔﴕﴖﴗﴘﴙﴚﴛﴜﴝﴞﴟﴠﴡﴢﴣﴤﴥﴦﴧﴨﴩﴪﴫﴬﴭﴮﴯﴰﴱﴲﴳﴴﴵﴶﴷﴸﴹﴺﴻﴼﴽ﴾﴿﵀﵁﵂﵃ﵐﵑﵒﵓﵔﵕﵖﵗﵘﵙﵚﵛﵜﵝﵞﵟﵠﵡﵢﵣﵤﵥﵦﵧﵨﵩﵪﵫﵬﵭﵮﵯﵰﵱﵲﵳﵴﵵﵶﵷﵸﵹﵺﵻﵼﵽﵾﵿ ﶀﶁﶂﶃﶄﶅﶆﶇﶈﶉﶊﶋﶌﶍﶎﶏ﶐﶑ﶒﶓﶔﶕﶖﶗﶘﶙﶚﶛﶜﶝﶞﶟﶠﶡﶢﶣﶤﶥﶦﶧﶨﶩﶪﶫﶬﶭﶮﶯﶰﶱﶲﶳﶴﶵﶶﶷﶸﶹﶺﶻﶼﶽﶾﶿﷀﷁﷂﷃﷄﷅﷆﷇ﷈﷉﷊﷋﷌﷍﷎﷏ﷰﷱﷲﷳﷴﷵﷶﷷﷸﷹﷺﷻ﷼﷽ ﹰﹱﹲﹳﹴ﹵ﹶﹷﹸﹹﹺﹻﹼﹽﹾﹿﺀﺁﺂﺃﺄﺅﺆﺇﺈﺉﺊﺋﺌﺍﺎﺏﺐﺑﺒﺓﺔﺕﺖﺗﺘﺙﺚﺛﺜﺝﺞﺟﺠﺡﺢﺣﺤﺥﺦﺧﺨﺩﺪﺫﺬﺭﺮﺯﺰﺱﺲﺳﺴﺵﺶﺷﺸﺹﺺﺻﺼﺽﺾﺿﻀﻁﻂﻃﻄﻅﻆﻇﻈﻉﻊﻋﻌﻍﻎﻏﻐﻑﻒﻓﻔﻕﻖﻗﻘﻙﻚﻛﻜﻝﻞﻟﻠﻡﻢﻣﻤﻥﻦﻧﻨﻩﻪﻫﻬﻭﻮﻯﻰﻱﻲﻳﻴﻵﻶﻷﻸﻹﻺﻻﻼ ﻽﻾ﭼ [التوبة: ١١٨]، فالقصة تبين أن التزام أفراد المجتمع بقضية واقتناعهم بها تُقوِّم المعوج، وتعزل الخطأ، وتبعد الداء، يقول كعب بن مالك ﷺ . وهو أحد الثلاثة .:"ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس، وتغيروا لنا حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف"[١٢]، وفي رواية أخري قال: "وتنكرت لنا الحيطان حتى ما هي بالحيطان التي نعرف، وتنكر لنا الناس حتي ما هم الذين نعرف"[١٣]، فهذا التنكر الذي قاله الصحابي الكريم هو أفضل شرح لقوله تعالى: ﭼ ﭑﭒﭓﭔﭕﭖﭗﭘﭙﭚﭛﭜﭼ لصدوره عمن سار في عروقه هذا الضيق ﷺ، . وليست النائحة الثكلى كالمستأجرة .، فهذا النجاح في فكرة العزل المجتمعي الذي أمر به الرسول ﷺ ما كان ليؤدي ثمرته إلا بالتوافق من المجتمع في قبوله والقيام به .

مما سبق تبين أن قيام الأمم ونهضتها منوط بالقيم والأفكار السائدة فيها، وعلى الأمم أن تختار القيم المحمودة التي ترفع شأنها وتحارب الغي والتقصير، وتكثر النكير على من يفسد ما توافقت عليه من قيم وأفكار، والرقابة في أي مجتمع هي الأداة التي ترصد كل فساد، فتساعد على تقويم واتقان بل إبداع الأعمال لدى الأفراد، فهي تحاصر الفساد

(١١) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٣٣١٢/١٠ تحقيق: أسعد محمد الطيب ط/مكتبة نزار الباز الطبعة الثالثة ١٤١٩هـ.

(١٢) صحيح البخاري كتاب المغازي باب حديث كعب بن مالك رقم (٤٤١٨) .

(١٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري للإمام ابن حجر العسقلاني ٧٢٥/٧ ط/ دار الريان للتراث الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

من جميع الجهات، وتناهضه بكل مستوياته، إذ أدواتها لا تكل ولا تعتل ولا تترك الانسان أبداً بمفرده، فهي تقوي المناعة الذاتية لكل خلية في المجتمع لينهض ويقوي، إذ أن كل فرد تتناغم أفعاله وأقواله مع الآخرين، فيصبح المجتمع كسرب الطيور من شذَّ منه ظهر، فلا يستطيع الفرد أن يفكر في المنكر أو يتلفظ به، وقد قيل: " المجتمع الذي يعمل فيه كل فرد ما يحلو له ليس مجتمعاً، ولكنه إما مجتمع في بداية تكونه، وإما مجتمع بدأ حركة الانسحاب من التاريخ فهو بقية مجتمع"(١٤).

والرقابة نوع من سنة التدافع الوارد في قوله تعالى: چثثفڤڤڤچ [الحج: ٤٠] فهي تحرك الخير حتى لا يكون خامداً ساكناً في حيز أو جهة، كما لا تسمح للشر أن يتحرك حراً بل تغله، ففيها ما ينشر الخير ويحرك الطاقات نحو الأفضل، وهذا أكثر ما يعمر الأرض ويقيم الحضارات، فهي أقوي الأساليب لدرء المفاسد واستجلاب المصالح، خاصة في مجتمعنا الذي توافق أفراده على القرآن الكريم كمرجع فكرى واحد لجميع القيم والمعتقدات، فاتحد عند الجميع معاني المعروف والمنكر، والخير والشر، والحسن والقبح، فهذا المرجع العام الذي توافق عليه جميع أفراد المجتمع ييسر أمر الرقابة على الفرد والمجتمع .

ويجد القارئ الكريم في هذا البحث . إن شاء الله . أنه تعالى جعل لنا الرقابة كحصن متعدد الأسوار يحوط المرء فيمنعه من المنكر والقبيح، ويدفعه إلى الإحسان والإتقان والإبداع، وهذا قوام النهضة والقوة في المجتمعات .

(١٤) مقولة مالك بن نبي نقلا عن كتاب (في إشراقة آية) أ.د/ عبدالكريم بكار ص(١١٥) ط/ دار السلام الطبعة الثانية ١٤٣١هـ.

المبحث الأول

ماهية الرقابة

المطلب الأول

الرقابة في اللغة وموارها في القرآن الكريم

مادة (رَقَبَ) في اللغة:

مادة (الراء والقاف والباء) تدل على انتصاب لمراعاة شيء[١٥]، وتستعمل هذه المادة للدلالة على معان عدة وهي:

١/ الحراسة:

رَقَبَ الشيءَ يَرْقُبُه وراقَبَه مُراقَبَةً ورِقاباً: حَرَسَه، ورقيب الْقَوْم: حارِسهم، وَهُوَ الَّذِي يُشرف على مَرقَبةٍ ليحرسهم [١٦] .

٢/ الرصد[١٧]:

رَقَبَهُ أرقبه يَرْقُبُهُ رِقْبَةً ورِقْبَاناً . بِكَسْرِهِمَا . ورُقُوباً . بالضَّمِّ .، ورَقَابَةً ورَقُوباً ورَقْبَةَ بِفَتْحِهِنَّ: رَصَدَهُ[١٨].

٣/ الانتظار والتوقع:

رَقَبَهُ رِقْبَةً ورِقْباناً . بكسرِهما . ورُقُوباً . بالضمِّ . ورَقَابةً ورَقُوباً ورَقْبَةً، بفتحِهِنَّ: انْتَظَرَه، والترَقُّبُ: تَوَقُّعُ شَيْءٍ وتَنَظُّرُه، وكذلكَ الارتقاب، والرقيبُ: المنْتَظِر [١٩].

---

(١٥) مقاييس اللغة لابن فارس مادة (رقب) ٤٢٧/٢ تحقيق : عبد السلام هارون ط/ دار الفكر ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

(١٦) لسان العرب مادة (رقب) ٤٢٥/١ ، وتهذيب اللغة للأزهري مادة (رقب) ١١٢/٩ تحقيق : محمد عوض ط/ دار احياء التراث العربي الطبعة الأولى ٢٠٠١م ، والمحكم والمحيط الأعظم لابن سيده مادة (رقب) ٣٩٢/٦ تحقيق : عبد الحميد هنداوي ط/ دار الكتب العلمية الطبعة الأولى١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠م.

(١٧) **الرصد** : التهيؤ لرقبة شيء على مسلكه . ينظر: مقاييس اللغة مادة (رقب) ٤٠٠/٢.

(١٨) الصحاح للجوهري مادة (رقب) تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار ط/ دار العلم للملايين الطبعة الرابعة ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م ، وتاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي مادة (رقب) ٥١٥/٢ ط/ دار الهداية .

(١٩) القاموس المحيط للفيروز آبادي باب الباء فصل الراء ٧٧/١ ط/دار الجيل ، والصحاح مادة (رقب) ١٣٧/١ ، والعين للخليل بن احمد مادة (رقب) ١٥٤/٥ تحقيق : د مهدي المخزومي ، د إبراهيم السامرائي ط/ دار ومكتبة الهلال ، وتاج العروس مادة (رقب) ٥١٦/٢.

٤/ الإشراف والعلو

ارْتَقَبَ المِكَانَ: أَشْرَفَ عَلَيْهِ وَعَلاَ ، والمِرْقَبَةُ والمِرْقَبُ: المكان العالي يقف عليه الناظر، ومَا أَوْفَيْتَ عَلَيْهِ مِن عَلَمٍ أَوْ رَابِيَةٍ لتَبصرَ من بُعْدٍ[٢٠].

٥/ الحفظ:

رَقَبْتُهُ: حفظته، والرَّقِيبُ: الحافظُ الَّذِي لَا يَغيبُ عَنْهُ شيءٌ مما يحفظ، فعيل بمعني فاعل[٢١].

وتستعمل مادة (رقب) مجازا بمعنى الفَرقْ أي: الخوف والحذر، قال صاحب الأساس:" رقبه وراقبه: حاذره، لأن الخائف يرقب العقاب ويتوقعه، ومنه فلان لا يراقب الله في أموره أي: لا ينظر إلى عقابه فيركب رأسه في المعصية"[٢٢].

مما سبق يتبين أن هذه المادة بمعانيها تدل على الرعاية والاهتمام لشيء .

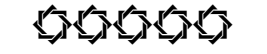

(٢٠) المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده مادة (رقب) ٣٩٢/٦ ، ومجمل اللغة لابن فارس مادة (رقب) ١/ ٣٩٣ تحقيق: زهير عبد المحسن ط/مؤسسة الرسالة الطبعة الثانية ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م ، وتاج العروس مادة (رقب) ٥١٥/٢.

(٢١) لسان العرب مادة (رقب) ٤٢٥/١ .

(٢٢) أساس البلاغة لأبي القاسم الزمخشري ٣٧٣/١ تحقيق: محمد باسل عيون السود ط/ دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م.

موارد الرقابة في القرآن:

استعمل القرآن الرقابة بمعانيها في اللغة، وقد وردت بمشتقاتها في القرآن الكريم خمس عشرة مرة، وذلك على النحو التالي:

- {تَرْقُب} وردت في موضع واحد قال تعالى: چگں ں ڻ ڻ ٹ ٹ ڤ ڤ ٿ ٿ چ [طه:٩٤] أي: لم تنظر قولي وتحفظه . ٩
- {يَتَرَقّب} وردت في موضعين:

قال تعالى: چ ڻ ڻ ٹ ٹ ڤ چ [القصص:١٨] أي: يترصد الأخبار، أو يتوقع المكروه .

قال تعالى: چ□□□□چ [القصص: ٢١] أي: يتوقع لحوق الطالبين به .

- {يَرْقُبون} وردت في موضع واحد قال تعالى: چ ڑ ڑ ک ک ک ک گ چ [التوبة:١٠] أي: لا يراعوا ولا يحفظوا، ويقال لكل من حافظ على شيء ورعاه راقبه .
- {يَرْقبوا} وردت في موضع واحد قال تعالى: چ ڤ ڦ ڦ ڄ ڄ چ [التوبة: ٨] أي: لا يحفظوا.
- {فَارْتقب} وردت في موضعين:

قال تعالى: چ گ گ گ گ ڳ ڳ چ [الدخان: ١٠] أي:فانتظر.

قال تعالى: چ□□□چ [الدخان: ٥٩] أي: فانتظر عاقبتهم .

- {فارتقبهم} وردت في موضع واحد قال تعالى: چ□□□□□□□□چ [القمر: ٢٧]. أي: انتظر وتوقع ما يحصل لهم .
- {وارتقبوا} وردت في موضع واحد قال تعالى: چ ھ ھ ے ے چ [هود: ٩٣].
- {رقيب} وردت في ثلاثة مواضع:

قال تعالى: چ ڦ ڦ ڦ ڦ ڦ ڄ چ [ق: ١٨].

قال تعالى: چ ھ ھ ے ے چ [هود: ٩٣].

- {رقيبا} وردت في موضعين:

قال تعالى: چ ڦ ڦ ڦ ڄ چ [النساء: ١]

قال تعالى: چ ک ک ک ک گ گ چ [الأحزاب: ٥٢].

- {الرقيب} وردت في موضع واحد قال تعالى:

چۋۋېېېچ [المائدة: ١١٧].

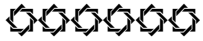

المطلب الثاني

مفردات قريبة الدلالة في القرآن الكريم من الرقابة

تتقارب بعض المفردات القرآنية مع بعضها في المعاني والدلالات، وإن كان ثمت فرق بين كل مفردة وأخري من حيث النظر لمجموع ما تؤديه من معاني، ولذا آثر القرآن استعمال بعض المفردات دون بعض في بناء تركيب كل سياق حسب الهدف المنوط بهذا التركيب، فنجد كل كلمة في القرآن مختارة اختياراً دقيقاً للدلالة على معني مقصود بذاته إن لم يكن من أصل الوضع اللغوي، واستعمالات العرب فبالاختيار والاصطلاح القرآني، ويكشف ذلك سبر دلالات الكلمة في كل المواضع التي استعملت فيها في القرآن الكريم(٢٣)، ولذا نجد أهل التفسير يتتبعون سر التعبير بكلمة دون أخري، وهناك بعض المفردات وجدتها تعبر عن معني الرقابة في بعض السياقات منها:

(بصيرة): مادة الباء والصاد والراء تفيد العلم بالشيء ؛ يقال: هو بصير به، وبصرته كذا إذا علمته إياه، والبصيرة: البرهان، وأصل ذلك كله وضوح الشيء، واجعلني بصيرة عليهم أي:رقيباً ً، كقولك: عيناً عليهم، ومنه قوله تعالى: چ□□ □ □ □ □چ [القيامة:١٤] أي: شاهد على نفسه(٢٤) .

فالبصيرة فيها من معني الرقابة العلم بكل أحوال المراقب، لكن ايثارها على عليم أو رقيب في الآية لما أن معناها تكامل العلم والمعرفة بالشيء(٢٥)، مع وضوح وانكشاف . وهذا ملاحظ في بناء نظم السورة لما فيها من الحديث عن الموت والقيامة اللذين فيهما انكشاف تام لكل الحقائق .

(٢٣) قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل أ. عبد الرحمن حسن حبنكة صـ(٤٤٤) ط/دار القلم الطبعة الرابعة ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.

(٢٤) راجع : مقاييس اللغة مادة (بصر) ٤٧٢/٢ ، وأساس البلاغة مادة (بصر) ٦٢/١ ، والمغرب في ترتيب المعرب لبرهان الدين المطرزي مادة (ب ص ر) صـ(٤٤) ط/دار الكتاب العربي بدون ، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروز آبادي بصيرة في (البصيرة) ٢٢٢/٢ تحقيق : محمد علي النجار ط/ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

(٢٥) الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري صـ(٩١) تحقيق: محمد إبراهيم سليم ط/ دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع القاهرة.

(حفيظ): مادة الحاء والفاء والظاء تدل على مراعاة الشيء، وتستعمل في كلّ تفقّد وتعهّد ورعاية، يقال: حفِظت الشيء أي: حرسته، وهو حفيظ عليه: رقيب، ومنه قوله تعالى: ﭽﭑﭒﭽ [الشورى: ٦] أي: رقيب على أحوالهم وأعمالهم فيجازيهم بها(٢٦).

ونجد الفرق بين الحفيظ والرقيب أَن الرَّقِيب هُوَ الَّذِي يرقب لِئَلَّا يخفى عَلَيْهِ فعلك، وَأَنت تَقول لصاحبك إِذا فتش عَن أمورك: أرقيب عَليّ أَنْت، والحفيظ: لَا يتَضَمَّن معنى التفتيش عَن الْأُمُور والبحث عَنْهَا (٢٧)، كما أن الحفظ يستلزم انتظار العاقبة للمخاطب لما يوحيه من عدم النسيان بخلاف الرقيب الذي ربما يرقب ثم ينسى، والسياقات تزيد ذلك بيانا .

(شهيد): مادة الشين والهاء والدال تدل على حضور وعلم وإعلام، شهد المكان: حضره ومنه قوله: ﭽﭞﭟﭽ [البقرة: ١٨٥] أي: فمن كان حاضرا فليصم فيه، وقولنا: أشهد أن لا إله إلا الله تعدى بنفسه لأنه بمعنى أعلم، والشهادة: الإخبار والاعلام بصحة الشيء مشاهدة وعيانا(٢٨) .

ونجد الفرق بين المفردتين ربما في كون الرقيب يحضر ويعلم لكن لا يلزم من ذلك إخبار بما علم .

(بالمرصاد): مادة الراء والصاد والدال تدل على التهيؤ لرقبة شيء على مسلكه، ثم يحمل عليه ما يشاكله،فالمادة موضوعة للتَّرقّب أَو لاستعداد التَّرقّب يقال: رصدته، أي ترقبته ؛ وأرصدت له، أي أعددت وهيأت له، قال تعالى: ﭽﭻﭼﭽ [الفجر:١٤]

(٢٦) راجع : المفردات للراغب الاصفهاني مادة (حفظ) ص(٢٤٤) تحقيق : صفوان عدنان الداودي ط/ دار القلم الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ ، وأساس البلاغة مادة (حفظ) ١/ ٢٠٠ ، ومقاييس اللغة مادة (حفظ) ٢/ ٨٧ ، وبصائر ذوي التمييز بصيرة في (الحفظ) ٤٨٠/٢ ، وأنوار التنزيل وأسرارا التأويل للبيضاوي ٧٧/٥ تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي ط/ دار إحياء التراث العربي . بيروت الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ .

(٢٧) الفروق اللغوية ص(٢٠٦) .

(٢٨) راجع : مقاييس اللغة مادة (شهد) ٢٢١/٣ ، والمغرب مادة (شهد) ص(٢٥٩).

أي: مراقبك فلا يخفى عليه شيء من أفعالك ولا تفوته[٢٩]. ونجد في مادة (الرصد) زيادة عن معني الرقابة وهي عدم قدرة المحاط بالرصد من الهرب، إذ المرصِد له مترقب له على مسلكه .

(قائم): مادة القاف والواو والميم تدل عليه الانتصاب أو العزم، والقيام للشيء هو المراعاة والحفظ له، ومنه قوله: چووۇۋې يېيېچ [الرعد: ٣٣] أي: حافظ لها، وهو من كمال الألوهيّة والقدرة، وفسرها ابن عباس بقوله: هو معكم أينما كنتم فلا يعمل عامل إلا والله حاضِرُه [٣٠]. وتجد الاستعمال القرآني في القيام يزيده عن الرقابة معني التولي والتدبير لأمور الخلق، فوق ما يعطي من معني الرقابة والاحصاء .

(معكم): وكل ما دلَّ المعية، وأصل المعية من كلمة (مع): وهو اسم يدل على المصاحبة، وهي حسية كالمصاحبة زماناً أو مكاناً تقول :جاء زيد مع عمرو، وجلس زيد مع عمرو، وقد تكون معنوية مثل ما تقول :هما في الشرف معاً [٣١].
والمعية في القرآن من الله تعالى كما أجمع المفسرون هي العلم وهي المعية العامة، وهي للمؤمنين معية إطلاع ونصرة وتأييد ومساعدة وتوفيق، ولذا جعلوها معية خاصة، كما قال تعالى: چ□ □ □ □چ [البقرة: ١٥٣]، وقال: چې□ □ □ □ □ □ □ □چ [النحل: ١٢٨]، فحيث وقعت في سياق المدح والثناء فهي من هذا النوع، وحيث وقعت في سياق التحذير والترغيب والترهيب فهي من المعية العامة كقوله تعالى: چڦڦڦڄچ

(٢٩) راجع : مقاييس اللغة مادة (ر ص د) ٢/ ٤٠٠ ، بصائر ذوي التمييز بصيرة في (الرصد) ٣/ ٧٦ ، ومجمل اللغة مادة (رصد) ص(٣٨٠) ، والمصباح المنير في غريب الشرح الكبير للفيومي مادة (رصد) ١/ ٢٢٨ ط/ المكتبة العلمية بيروت .

(٣٠) راجع : المفردات مادة (قوم) ص(٤٦٥) ، وبصائر ذوي التمييز بصيرة في (قوم) ٤/ ٣٠٩، ومقاييس اللغة مادة (قوم) ٥/ ٤٣، وجامع البيان عن تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري ١٠٦/١٣/٧ ط/ دار المعرفة بيروت الطبعة الرابعة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

(٣١) راجع : لسان العرب مادة (معع) ٣٤٠/٨ ، والمحكم مادة (م ع ع) ١١٠/١، والصحاح مادة (معع) ١٢٦٨/٣ ، والمفردات مادة (مع) ص(٥٢٤) .

[الحديد:٤][٣٢]. والمعية الخاصة لا تتناقض مع العامة بل تقتضيها، والرقابة لازم من لوازمها، وهي مقصدي في البحث .

(٣٢) راجع : القواعد الحسان لتفسير القرآن عبدالرحمن بن ناصر آل السعدي ص(٣٨) ط/ مكتبة الرشد الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م ، والمعية الإلهية في ضوء القرآن الكريم معانيها ودلالتها د/ناصر بن محمد الماجد ص(٥٠) . ينظر: مجلة تبيان للدراسات القرآنية العدد العاشر ١٤٣٣هـ تصدر عن الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه .

المطلب الثالث
تحرير معنى الرقابة

تحرير معني الألفاظ في الأبحاث مما يوضح مراد البحث وهدفه، إذ أن اتساع اللغة وتعدد مدلولات الكلمة، يجعل القارئ يقف موقف المتردد بين تلك المدلولات التي ظهرت له، وإذا كانت الكلمة قد رسخت في ذهن القارئ على مدلولٍ معين، سارع في تنزيلها حسب اصطلاحه هو، لا اصطلاح الكاتب، ولهذا وقع الغلط في الفهم والاستدلال في شتى الفنون بسبب عدم تحرير المراد ببعض الألفاظ متعددة الدلالة قبل البدء في فهم الكلام والاستدلال به، بل إن ذلك منشأ التحريف، يقول ابن تيمية:" مَنْ لم يعرف لغة الصحابة ﷺ التي كانوا يتخاطبون بها، ويخاطبهم بها النبي ﷺ، وعادتهم في الكلام حرّف الكلم عن مواضعه، فإن كثيراً من الناس ينشأ على اصطلاح قوم وعادتهم في الألفاظ، ثم يجد تلك الألفاظ في كلام الله تعالى أو رسوله ﷺ، أو الصحابة ﷺ، فيظن أنّ مراد الله أو رسوله أو الصحابة بتلك الألفاظ ما يريدُه بذلك أهلُ عادته واصطلاحه، ويكون مرادُ الله ورسوله والصحابة خلاف ذلك "(٣٣) .

ولهذا فتحرير مقصد الباحث من بحثه خاصة حول معاني المفردات القرآنية من الأهمية بمكان إذ إن استيفاء معاني ودلالات المفردة القرآنية ومشتقاتها، وإدراجها تحت عنوان واحد من الصعوبة بمكان، لما للمفردة القرآنية من اتساع وابتكار في كل سياق، وهذا مما تميز به القرآن الذي عجز البشر عن محاكاته .

وتأتي المفردة القرآنية (رقب) ومشتقاتها بعدة معاني من بينها: الحفظ، الحراسة، الرصد، الانتظار، الاشراف والعلو، وسبق بيان بعض المفردات القرآنية التي تقارب هذه المعاني بوجه من الوجوه، ومن أجل هذا الاتساع في المعاني قصدت تحريراً لمرادي من هذا المفردة، فأقول أقصد بالرقابة:

(٣٣) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة لابن تيمية ص(١٦٤) تحقيق: ربيع بن هادي عمير ط/ مكتبة الفرقان . عجمان الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م .

ما غرسه القرآن في نفوس أتباعه من الشعور بوجود إحصاء أو إشراف على أحوال العبد وأقواله وأعماله، بما يكشف حسنها وقبحها حالا أو مآلاً، بهدف تنمية روح الإتقان، وحفظ المجتمع وتنميته .

فشعور العبد أن كل ما يقوم به إن لم يرقبه بنفسه فسوف يحصى عليه بعيون غيره، وبيان هذا الاحصاء ينكشف للعبد حالاً أي في الدنيا بما يُقوِّمه به غيره، أو مآلاً بما يحاسبه عليه ربه، وهذا يدفع إلى محاصرة للغي والتقصير فيضمن نمواً قوياً للمجتمع، ولذا فالرقابة وسيلة لضمان إقامة العباد لأعمالهم المنوطة بهم وفق أعلى جهد بشري وتقويمها حسب الضوابط القرآنية .

وإذا وُجد الدافع لأداء العمل وتطويره وتقويمه، وتوفر كلٌ على القيام بواجبه توافرت الحقوق تلقائياً، وهذا هو أم المهمات في تنمية أي مجتمع بشري .

♦♦♦♦♦

المبحث الثاني

أنواع الرقابة في القرآن الكريم

المطلب الأول

الرقابة العليا

حرص الإسلام أن يزرع في نفوس أتباعه الشعور بالوجود الأعلى الذي لا يغيب ولا يغفل، وهذا هو ما أعنيه بالرقابة العليا، فهي نوع من الرقابة نفيس يُحيي اليقين في شعور المسلم وقلبه أنه لم يخلق هملاً، بل إن أحواله تحصى وتقلباته تُعد عليه، وهذا يورثه الاتقان والاخلاص في كل أحواله وتقلباته في دنياه، وتقوم هذه الرقابة على محورين:

المحور الأول: اليقين برقابة الله على العباد .

هذا اليقين نابع من الدين نفسه، بل نابع من الإيمان بوجوب وجوده سبحانه فعندما قال الله تعالى: چڦڦڦ ڤڤچ [النساء: ١] وقال: چکککگگچ[الأحزاب:٥٢] برزت في الآيتين كلمة {كَانَ} إلى جانب لفظ الجلالة الموصوف بالرقابة، و{كان} في لغة العرب مأخوذة من الكون أو الكينونة اللذين معناهما الوجود، ولازم هذا أن يكون المعني في الآية الأولى: ((إن الله وُجد عليكم رقيبا))، وفي الثانية ((وُجد الله على كل شيء رقيبا)) فمجرد إثبات وجوده تعالى قاضٍ له باتصافه بهذا الوصف، فكأنه قيل: إن البراهين قاطعة بوجوب وجوده تعالى وهي قاطعة تبعاً لهذا الوجوب بصفة رقابته سبحانه، فكأنه تعالى ذكر الصفة ببرهانها قطعاً للعذر في الغفلة عنها [٣٤] .

وصفة الرقابة من الله تعالى ليست صفة متابعة لأفعال العباد وأحوالهم فحسب، بل صفة إعانة وتقويم، فهي تزرع في النفوس الرغبة في أن يراهم الله تعالى دائما في أحسن حال .

تأمل قوله: چڦڦڤڤچ تجد الآية مستأنفة استئنافاً بيانياً تعليلاً لما سبقها من الأمر بالتقوى[٣٥]، كأن سائلاً قال: لم نتقيه ؟ فكان الجواب بالآية الكريمة، وكذا الاستئناف في قوله تعالى: چکککگگچ ، ويعني هذا أن الله تعالى طلب منكم الأمر

(٣٤) راجع التفسير التحليلي لسورة النساء أ.د/ إبراهيم عبد الرحمن خليفة ص(١٧٤) بتصرف الطبعة الأولى ١٤١٤هـ /١٩٩٣م ، بدون دار طبع .

(٣٥) المرجع السابق ص(١٧٣) بتصرف .

ابتداء، وأعانكم عليه بإعلامكم أنه الرقيب عليكم، لأنه إذا كان هو الرقيب فيجب أن يكون المرء حريصا أن يراه الله تعالى متما لعمله على أكمل وجه .

ولذا نجد رقابته تعالى مؤكدة بأوثق توكيد في آية سورة النساء لترسيخ المعني الذهني عند المخاطبين، فأكدها بـ{إنَّ}، وبتكرار لفظ الجلالة الذي يربي في نفس المؤمن كل معاني العبودية، وبالتعبير بـ{كان} الدالة على الدوام والاستمرار(٣٦)، وبذكر الفوقية في قوله تعالى (عَلَيْكمْ) وهي دالة على معنى الاطلاع الدائم مع السيطرة والقهر، وأخيراً بصيغة المبالغة إذ قال:(رَقِيبًا) (٣٧).

ولنقف مع الآيتين وقفة تأمل لبيان وجوه الإعانة بالرقابة على دوام العمل واستقامته لتجد

أن قوله: {عَلَيْكُمْ} في آية النساء تقدم على ما تعلق به، وهو قوله تعالى: {رقيبا} لإفادة أن الرقابة مسلطة على العباد بالذات، فهم المقصد الأصيل لها، ولهم وُجدت، وأيضاً لإفادة تثبيت المعنى وتمكينه في النفس، فحين قال تعالى: {إن الله كان عليكم} تشوقت النفس إلى ما بعد ذلك فإذا قال {رقيبا} ثبت في النفس معني الرقابة، ضم إلى ذلك أن حرف {علي} في أصل وضعه يفيد الاستعلاء إذا دخل على

(٣٦) إشارة إلى تعبير أهل التفسير (كان ولم يزل) في موارد (كان) في هذه الآية وأمثالها كقوله :{وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً} حيث إن (كان) عبارة عن وجود الشيء في زمان ماض على سبيل الإبهام، وليس فيه دليل على عدم سابق ولا على انقطاع طارئ ، فهي تفيد اتصاف اسمها بخبرها في الزمان الماضي أعم من يكون هذا الماضي قد انقطع أولم ينقطع ، والقرينة هي المحددة والمبينة لذلك ، وهي متمثلة في دلائل العقل والنقل التي نصت على أن كمالاته تعالى دائمة مستمرة بوجود ذاته تعالى، فهي في مثل هذه الموارد تكون للماضي الذي لا ينقطع بل هو مستمر، فتفيد الدوام والاستمرار.[راجع : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري ١/ ٤٠٠ ط/ دار الكتاب العربي . بيروت الطبعة الثالثة ١٤٠٧ هـ ، والتفسير التحليلي لسورة النساء د/ إبراهيم خليفة ص(١٧٤)].

(٣٧) زهرة التفاسير للإمام محمد أبي زهرة ١٥٧٨/٣ ط/دار الفكر العربي .

محسوس، وهنا يفيد معني التمكن والسيطرة والإحاطة الدالة على الاطلاع الدائم على العباد والإحاطة بأحوالهم(٣٨) .

أن قوله تعالى في آية الأحزاب {عَلَى كُلِّ شَيْءٍ} تعبير يوحي بالإحاطة التامة المستغرقة لجميع الأحوال والأوقات، بما يُلقي في النفس الرهبة التي تدفع العبد للعناية بكل ما يقوم به، لأن المرء يحب أن يكون صالحاً أمام من يحب، وهي تحمل في طياتها معاني آيات كثيرة:

/ فكلمة {عَلَى} المفيدة للاستعلاء حساً أي: ظاهراً معلناً ، أو معني أي: باطناً خافياً، تعني التمكن التام من الاطلاع الدائم على ما يدور في حياتك، وهذا هو قوله تعالى: ﭽﭑﭒﭓﭔﭕﭖﭗﭘﭙﭚﭛﭜﭝﭞﭟﭠﭡﭢﭣﭤﭥﭦﭧﭨﭩﭪﭫﭬﭭﭮﭯﭰﭱﭲﭳﭴﭵﭶﭷﭸﭹﭺﭻﭼﭽ [الرعد:٩/١٠]، وقال ﭽﭑﭒﭓﭔﭕﭖﭗﭘﭙﭚﭛﭜﭝﭞﭟﭠﭡﭢﭣﭤﭥﭦﭧﭨﭩﭪﭫﭬﭭﭮﭯﭰﭱﭲﭳﭴﭵﭶﭷﭸﭹﭺﭻﭼﭽ [طه:٧].

/ وكلمة {كُلِّ} وهي اسم موضوع لاستغراق الأفراد التي يمكن أن تندرج تحتها فهي من أقوى ألفاظ العموم، وأصلها يدل على الإحاطة(٣٩)، وهذا يزيد ما تقرر عندك من تمام الرصد وشمول الرقابة وسعة الاطلاع والعلم بما خفى، والذي يصرح به قوله تعالى: ﭽﭑﭒﭓﭔﭕﭖﭗﭘﭙﭚﭛﭜﭝﭞﭟﭠﭡﭢﭣﭤﭥﭦﭧﭨﭩﭪﭫﭬﭭﭮﭯﭰﭱﭲﭳﭴﭵﭶﭷﭸﭹﭺﭻﭼﭽ [المجادلة: ٧] ثم يأتي تمام هذه الآية بطريق الاستئنافٌ ليقرر مَا قَبْلَهُ من سعةِ علمِهِ تَعَالى، وَبيان كيفيتهِ، فيقول تعالى: ﭽﭑﭒﭓﭔﭕﭖﭗﭘﭙﭚﭛﭜﭝﭞﭟﭠﭡﭢﭣﭤﭥﭦﭧﭨﭩﭪﭫﭬﭭﭮﭯﭰﭱﭲﭳﭴﭵﭶﭷﭸﭹﭺﭻﭼﭽ [المجادلة: ٧]، وما أجمل قول ابن عباس (رضي الله عنهما) في تفسير قوله تعالى: ﭽﭑﭒﭓﭔﭕﭖﭗﭘﭙﭚﭛﭼﭽ [الفجر:١٠]: يرى ويسمع ويبصر(٤٠).

(٣٨) راجع تأملات في آيات من سورة النساء أ.د/رضا عبد المجيد المتولي ص(٣٤) بتصرف. طبعة جامعية بدون تاريخ.

(٣٩) راجع الإتقان في علوم القرآن للسيوطي النوع الأربعون ٢١٨/٢ تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ط/ مكتبة دار التراث الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م ، والفروق اللغوية للعسكري ص(١٤٢) .

(٤٠) جامع البيان للطبري ١١٥/١٢ ، ومعالم التنزيل للبغوي ٤٢٠/٨ تحقيق : محمد عبد الله النمر – عثمان جمعة ضميرية – سليمان مسلم الحرش ط/ دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة الرابعة ١٤١٧ هـ /١٩٩٧م.

/ثم كلمة {شيء} وهي أَعم العام وتقع على الموجود والمعدوم، مُمكنا أَو محالا(٤١)، ليَثبُت لك طلاقة الرقابة الإلهية وشمولها بحيث توقن أن ربك يرقب ما كان وما يكون وما لم يكن بعدُ حين يكون . سبحانه وتعالى .، وهذا مصرح به أيضا في قوله تعالى: چ ىيي□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□□چ [يونس: ٦١] .
فهذه المفردات الثلاث تضمنت معاني جليلة، وفصلتها آيات كريمة، وسبحان من هذا كلامه.

ومن أوجه غرس مفهوم الرقابة في النفس استحضار معني المعية، التي أصلها الضم والاجتماع ومعناها النصرة والحفظ(٤٢)، والمعية صحبة ونصرة من الله تعالى للمؤمنين، قال تعالى: چۇۆۆۈچ [التوبة:٤٠] ومعلوم أن المضاف إليه لفظ {مع} هو المنصور(٤٣)، والمعية فيها معني الحفظ، لأن الحافظ لا يغيب عنه شيء، وهذا مفهوم أوليٌّ للمعية قال تعالى: چڦڦڦڄچ [الحديد:٤]، ولذا نجد ترابطاً كبيراً بين ما يدل على المعية، وما يدل على الرقابة كما قال تعالى: چٱٻٻٻٻپپپپڀڀڀڀٺٺٺٺٿٿٿٿ ٹٹٹٹڤڤڤڤڦڦڦڦڄڄڄڄڃڃڃڃ چچچچڇڇڇڇڍڍڍڍڌڌچ [المجادلة:٧] يقول الإمام ابن كثير:" حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بهذه الآية معية علم الله تعالى، ولا شك في إرادة ذلك، ولكن سمعه أيضا مع علمه محيط بهم وبصره نافذ فيهم، فهو سبحانه مطلع على خلقه لا يغيب عنه من أمورهم شيء"(٤٤).

وهاك آية أخرى تري فيها هذا الترابط، وهي جواب عيسي عليه السلام لرب العزة سبحانه يوم القيامة، ليرى الكفار تبرئته عليه السلام مما نسبوه إليه قال تعالى: چۆۈۈېېېچ [المائدة:

(٤١) الكليات للكفوي ص(٥٢٥) تحقيق: عدنان درويش – محمد المصري ط/ مؤسسة الرسالة – بيروت، والمفردات للراغب مادة (شيأ) ص(٣٠٤) ..
(٤٢) مجمل اللغة ٨١٦/١ ، والمفردات مادة (مع) ص(٥٢٤).
(٤٣) راجع تفسير ابن فورك الأصبهاني المتوفي (٤٠٦هـ) من أول سورة المؤمنون إلى آخر سورة السجدة دراسة وتحقيق : علال عبد القادر بندويش ط/ جامعة أم القرى – المملكة العربية السعودية الطبعة الأولى ١٤٣٠ هـ / ٢٠٠٩ م ، والمفردات مادة (مع) ص(٥٢٤).
(٤٤) تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير ٣٢٢/٤ط/ دار إحياء الكتب العربية .

١١٧]، وجوابه فيه معني المعية، حيث إن معيتهم معه ﷺ كانت المانع من حصول افترائهم، فلما توفاه الله زال هذا المانع، وكان تعالى هو الرقيب الحافظ الملازم لهم، ولذا قال صاحب الدر المصون: "المعنى: وكنتُ عليهم شهيداً مدة إقامتي فيهم"(٤٥).

المحور الثاني: اليقين بوجود الملائكة .

الإيمان بوجود الملائكة ركن من أركان الايمان قال تعالى: چچچچڇڇڇڇڍڍڌڌڎڎڈڈژژڑڑکچ [البقرة: ٢٨٥]، ومن أجلِّ مظاهر الروحية في ديننا، وقد أخبرنا القرآن أن علاقتنا بالملائكة لطيفة حميمة قال تعالى: چچچچڇڇڇڇڍڍڌڌڎڎڈڈژژڑڑکچ [الشورى: ٥] ، وقال: چئئئىىىىیییيججچچڇڇڇڇڍڍڌڌڎڎڈڈژژڑڑکچ [غافر: ٧]، وقال: چڈژژڑڑکککگچ [الأنفال: ١٢]، وقال: چٱٻٻٻٻپپپپڀڀڀڀٺٺٿٿٹٹٹٹچ [فصلت: ٣٠] (٤٦) .

وأخبرنا أنه تعالى جعل علينا من الملائكة حفظة، وهم نوعان(٤٧):

الأول: يحفظون العبد في حله وترحاله، وفي نومه ويقظته من كل سوء وحدث قال تعالى: چٹٹٹٹڤڤڤڤٹٹٹٹہہہہھچ [الرعد: ١١]، قال ابن عباس: "ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه فإذا جاء قدر الله خلوا عنه"، وقال مجاهد: ما من عبد إلا له ملك موكل، يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام، فما منها شيء يأتيه يريده إلا قال الملك: وراءك . إلا شيء يأذن الله فيه فيصيبه "(٤٨) .

(٤٥) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي ٥١٨/٤ تحقيق : د/أحمد محمد الخراط .ط/ دار القلم .

(٤٦) راجع [الله] كتاب في نشأة العقيدة الالهية أ. عباس محمود العقاد ص(٤٧) ط/ دار المعارف بمصر بدون تاريخ ، وشخصية المسلم كما يصورها القرآن د/مصطفي عبد الواحد ص(٧٥) ط/ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

(٤٧) فهمت هذا من أقوال السلف في تفسير الآيات ، وربما من يقوم بالحفظ هو من يقوم بالكتابة ويؤيده التنكير في قوله تعالى:چڤ ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ ڦ ڦ ڄ [الأنعام:٦١] .

(٤٨) تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير ٥٠٣/٢ .

الثاني: يحفظون أعمال العباد ويكتبونها، قال تعالى: چچچچڍڍڌڌچ [الانفطار: ١٠-١٢]، وفي وصْف الكاتبين بأنهم {كراما} توجيه للعباد ألا يقابلوهم بالقبائح، فهو شأن معاملة الكرام، ونفهم معني المراقبة هنا من تعدية لفظ {الحفظ} بحرف الجر [على] إذ تعديته بنفسه يعطي معني الحراسة كقوله: چہہہھچ [الرعد: ١١] (٤٩).

ونلاحظ في رونق سبك الآية واختيار مفرداتها نكتتين في مفهوم الرقابة:

أما نكتة سبكها فوقوع الآية جوابا لقسم، وهو قوله تعالى: چٱٻچ [طارق: ١] المفسر بقوله تعالى: چٻٻچ [الطارق:٣]، وصورة النجم الثاقب لحجاب لظلام تتناسب وصورة الرقيب الذي حجب النفوس وأستارها، فالحفظة مكنهم الله الاطلاع على العباد في كل حال كالنجم يكشف الظلام مهما ادلهم، وكأنه تعالى بهذا القسم يؤكد ما صحح من اعتقاد الغافلين المذكور في قوله تعالى: چچچچڇڇڍڍڌڌڎڎچ [الزخرف: ٨٠] .

أما نكتة المفردات فتخصيص لفظ النفس لوقوع الحفظ عليها، إذ النفس مستودع الأسرار والأفكار(٥٠)، ومع ان الله تعالى تجاوز لنا عما حدثت به النفس. قال ﷺ: {إن الله تجاوز لأمتي عما وسوست أو حدثت به أنفسها، ما لم تعمل به أو تكلم}(٥١). إلا أنه جعل الرقابة مسلطة عليها، للإيحاء بدقة الرقابة حتى إنها لتصل الى النفس ذاتها لا مجرد الأعمال والأقوال.

فهذه الآية تُقرُّ في الأذهان دقة رقابة الملائكة وشمولها، وإذا ضممت إليها قوله تعالى چ ڦڦڦڦڄڄچ [ق: ١٨] علمت كيفية شمولها، إذ المراد عموم الأفعال والأقوال (٥٢)،

(٤٩) راجع حاشية زاده على البيضاوي ٥٦٥/٨ ط/ دار الكتب العلمية الطبعة الأولى ١٤١٩هـ/١٩٩٩م ، والتحرير والتنوير للعلامة الطاهر بن عاشور ١٨٠/١٥ط/ دار سحنون. تونس.

(٥٠) الموسوعة القرآنية لجعفر شرف الدين ١١/ ١٨٤ تحقيق : عبد العزيز التويجزي ط/ دار التقريب بين المذاهب الإسلامية / بيروت الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ .

(٥١) صحيح البخاري كتاب الأيمان والنذور باب إذا حنث ناسيا في الأيمان ح رقم (٦٦٦٤) ، وصحيح مسلم كتاب الإيمان باب(٥٨) تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر ح رقم (٢٠١).

(٥٢) راجع حاشية القونوي على تفسير البيضاوي ١٧٣/١٨ ط/دار الكتب العلمية الطبعة الأولى ١٤١٢هـ / ٢٠٠١م.

ومعلوم أن القصد من الرقابة والحفظ الجزاء يوم الدين، ولذا قيل إن الإحصاء خاص بما عليه ثواب وعقاب [٥٣] .

(٥٣) عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي للشهاب الخفاجي ٨٨/٨ ط/دار صادر بيروت.

المطلب الثاني
الرقابة النفسية

الرقابة النفسية(٥٤):

إن الله تعالى خلق الإنسان وزوده من ذاته مقومات التقويم والإصلاح إذ هو استرشد بآيات الذكر الحكيم، فقد بيّن سبحانه أن هناك رقابة ذاتية من النفس لا يستطيع المرء مداهنتها أو الفرار منها، وهي بذلك رقابة قوية مثمرة قال تعالى: چ□□□□□چ [القيامة:١٤] والمراد بالآية أحد معنيين:

أولهما: أن الإنسان عليه شاهد يراقبه ويحصى عمله ويبصره وهو الجوارح أو الحفظة(٥٥) .

وهذه الرقابة لا يظهر أثرها إلا يوم القيامة(٥٦)حين يحاسب العبد على عمله فتنطق كواسبه به قال تعالى: چۀۀەەہہھھ چ[النور: ٢٤] وقال: چۀۀەەچ [يس: 65] **وقال:** چ□□□□□چ [فصلت: ٢٠] .

وما أدقها من رقابةٍ تلك التي يقوم بها كاسب العمل ومجترحه !! فلو أيقن العبد أن كواسبه تراقبه لا شك ينزجر عن كل منكر ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

وحين يستحضر العبد صورة رقيب يظله ولا يفارقه ويكتب عمله في صحائف تعرض على رؤوس الأشهاد في مواقف القيامة، سيكون ذلك ولا شك زاجراً له عن القبائح، ودافعا له أن يتقن عمله ويستكثر منه حتى لا يراه رقيبه والأشهاد إلا وهو على خير . قال تعالى: چڦڦڦڦڦڦچ [ق: ١٨] وقال: چچچچڈڈڈڈچ [الانفطار: ١٠-١٢]

(٥٤) قصدت بهذه النسبة ما ورد في الآيات التي تتحدث عن الرقابة المنسوبة للنفس كقوله تعالى :{ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا}[الإسراء:١٤]، وكقوله :{ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ }[القيامة : ١٤] ، وهو أولى من الرقابة الذاتية أو الفردية.

(٥٥) روي عن ابن عباس رضي الله عنهما كلا القولين ، وعن عكرمة ، ومقاتل ، والكلبي وغيرهم أنها الجوارح فقط . ينظر : جامع البيان للطبري ١١٥/٢٩/١٢ ، وتفسير القرآن العظيم لابن ابي حاتم ٣٣٨٧/١٠ ، والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية ٥/ ٤٠٤ تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد ط/ دار الكتب العلمية الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ .

(٥٦) لا يقال : أي نفع في رقابة لا يظهر أثرها في الدنيا ؟ لأن استحضار صورتها في الآخرة يدفع العبد لإصلاح نفسه ومجتمعه في دنياه.

وقال: چچچچڍڍڌڌڎڎڈڈڏڏچ [الزخرف: ٨٠] فالجوارح والكاتبين رقابة مزدوجة تَدُعُّ بالمرء إلى الإحسان في العمل وتنمية الخير في نفسه ومجتمعه.

ثانيهما: أن الإنسان بصير بنفسه، ففي الإنسان شاهد مبصر على نفسه وهو حجة عليه(٥٧)، فقد جُرد(٥٨)هنا من الإنسان عين أي: جاسوس ذو بصيرة (٥٩)يراقبه، ولذا جاء حرف الجر(على) لتضمين الكلام معنى المراقبة(٦٠).

وهذا يظهر أثره في الدنيا ويشعر به العبد بين جنباته، فالإنسان شهيد على نفسه وحده بما رُكب فيه من إدراك وبما يعلم أن ما يقربه إلى الله ويشغله بطاعته وخدمته فهو السعادة، وما يبعده عن طاعة الله ويشغله بالدنيا ولذاتها فهو الشقاوة(٦١)، فبلازم ذلك يجتنب كل محظور بدافع من ذاته قال تعالى: چےۓڭڭچ [الإسراء: ١٤]، وهو

(٥٧) هذا قول ابن عباس وقتادة وابن زيد وأبي العالية وعطاء والاخفش. ينظر : جامع البيان ١١٥/٢٩/١٢ ، والدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي ٣٤٧/٨ ط/دار الفكر بيروت ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ص(٦٨٩١) ط/ دار الشعب ، وذكره الثعالبي بدون عزو في تفسيره الجواهر الحسان ٥٢٢/٥ تحقيق : محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود ط/ دار إحياء التراث العربي – بيروت ، الطبعة: الأولى – ١٤١٨ هـ ، وروح المعاني ٢٤٢/١٦ ط/ دار الفكر عام ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

(٥٨) التجريد: أن ينتزع من أمرٍ موصوف بصفة أمرٌ آخر مثله في تلك الصفة، للمبالغة في كمال تلك الصفة في ذلك الأمر المنتزع عنه، فالعرب قد تعتقد أن في الشيء من نفسه معنى آخر، كأنه حقيقته ومحصوله، وعلى هذا يخاطب الإنسان منهم نفسه، حتى كأنها تقابله أو تخاطبه. وعليه قراءة من قرأ:{قَالَ اعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة:٢٥٩] . [القراءة بصيغة فعل الأمر قراءة حمزة والكسائي . ينظر: تحبير التيسير في القراءات العشر لابن الجزري ص(٣٠٩) تحقيق: د/أحمد محمد مفلح ط/ دار الفرقان – الأردن الطبعة الأولى ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م] . أي: اعلم أيها الإنسان ، وهو نفسه الإنسان . [ينظر: التعريفات للجرجاني ص(٥٢) ط/ دار الكتب العلمية بيروت الطبعة: الأولى ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م، والخصائص لابن جني (٢/ ٤٧٦) بتصرف ط/ الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة الرابعة بدون].

(٥٩) فتح الغيب في الكشف عن قناع الريب للإمام الطيبي أو حاشية الطيبي على الكشاف ١٦٢/١٦ الطبعة الأولى ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م من مطبوعات جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم.

(٦٠) التحرير والتنوير ٣٤٧/١٤.

(٦١) مفاتيح الغيب للإمام الرازي ٢٧/١٦ بتصرف ط/دار الغد العربي الطبعة الأولى ١٤١٢هـ /١٩٩٢م.

قبل يوم القيامة يحدث نفسه بعمله في الدنيا، فإذا كانت نفسه أمارة فسبيلها الركون لحالها والرضى بطريقها، وإذا كانت لوّامة فسبيلها الندم وغايتها الإقلاع عن المنكر والأمر بالمعروف، ولذا جاء القسم بها في أول السورة تنبيها على فوز أصحابها في الدنيا ويوم القيامة .

ولعل الراجح في المراد بهذه الآية المعنى الثاني لأنه يناسب ما ذكر من القَسم بالنفس في أول السورة إذ هي الشاهدة عليه، ولأنه يضيف معنى جديداً غير ما تكرر في آيات كثيرة من شهادة الجوارح ورقابتها المصرح بها في آيات كثيرة، وقد تقرر في الأصول أنه إذا دار الأمر بين التأسيس والتأكيد، فالحمل على التأسيس أولى .

وسواء أكانت الشهادة من جوارحه أو من الحفظة الكرام أو من النفس ذاتها فما يعنينا أن هؤلاء المراقبين لو استشعرهم الانسان كانوا ضميمة خير له، شأن كل عامل يعلم أن فوقه من يراقبه .

والآية مذكورة في سياق الحديث عن مشاهد القيامة وإسقاط الأعذار أمام رب العالمين ورحمته تعالى حالت دون عدم إعلام الإنسان بهذه الشواهد قبل ان تتمثل له يومها ليهلك من هلك عن بينة .

وتأمل . أيها المبارك . كيف جاء التعبير بقوله: "بصيرة" دون غيرها من الألفاظ، لأن البصيرة متضمنة معنى الوضوح والحجة، كما يقال للإنسان: أنت حجة على نفسك !

والله أعلم.

المطلب الثالث

الرقابة العلمية

الرقابة العلمية:

إن المعرفة العقلية أساس الايمان، ولذا يدعونا القرآن كثيراً إلى النظر والتفكر في الآيات والأدلة قال تعالى: چڈڈژژڑ ڑچ [يونس: ١٠١]، وقال: چڳںںڻڻڻۀہہچ [الذاريات:٢٠،٢١]، ثم نراه يصف دعوته بأنها دعوة مستنيرة قائمة على النور والبصيرة: چ چچڍڍ ڌڌڎڎڈژچ [يوسف: ١٠٨]، بل يلخص وصاياه لطالبي الحق في وصية واحدة رئيسة: چۅۉۉېېچ [سبأ: ٤٦] [٦٢]، فالإسلام يبني كيانه على التعمق في العلم[٦٣]، والتزيد من الثقافة ودوام الصلة بعمل القدرة في مجال العالم الرحب، وهو بهذا يقوي الايمان، ويعمق الشعور بعظمته تعالى وخشيته في النفوس، وهذا وجدناه صريحا في قوله تعالى: چڤڤڤڤڦچ [٦٤] [فاطر: ٢٨]، ذلك لأن العلم مدد الايمان الموار ونبعه الفوار، ولذا قرن الله تعالى أولي العلم مع الملائكة في التصديق بوحدانيته: چٹٹٹٹ ٹٹٹٹڤڤڤڤڦڦڄڄڄڄچ [آل عمران: ١٨].

وما استحق أولوا العلم هذه المنزلة الرفيعة إلا لأن العلم يخلق في تصوراتهم وعواطفهم التوجه لرضا الله تعالى أو نفع الناس، أو هما معا[٦٥]، وهذا ما أعنيه بالرقابة العلمية، وهي رقابة تنشب بصاحب العلم وتنازعه كل تصوراته، ولذا عندما حاول أحد الذين

(٦٢) نظرات في الاسلام د/محمد عبدالله دراز ص(١٤،١٥) بتصرف ط/ المكتب الفني للنشر الطبعة الأولى ١٣٧٧هـ/١٩٥٨م .

(٦٣) التعمق في العلم الشرعي والعلم التجريبي والإنساني ايضا ، فكم رأينا في علماء الكون من شهد لله تعالى بالوحدانية ، أو أتي من حيث لا يشعر بالدليل على وحدانية الله تعالى ولذا يقول (أينشتين)"إن بصيرتنا الدينية هي المنبع، وهي الموجه لبصيرتنا العلمية" [نظرات في القرآن للشيخ محمد الغزالي ص(٨٠) ط/دار الكتب الحديثة الطبعة الثانية١٣٨٠هـ/١٩٦١م] وكتاب أ.كريسي مويسون المترجم للعربية بعنوان (العلم يدعو إلى الإيمان) أوضح مثال لذلك ، ومثله كتاب (الله يتجلى في عصر العلم) بأقلام ثلاثين عالما متخصصا في العلوم الكونية والانسانية.

(٦٤) جاء تقديم اسم الله تعالى لغرض بيان الخاشون من هم ؟، فأخبر بأنهم العلماء خاصة دون غيرهم ، ولو أخر ذكر اسم الله تعالى وقدم العلماء لصار الغرض بيان المخشي من هو؟ ، ولم يجب حينئذٍ أن تكون الخشية من الله تعالى مقصورة على العلماء وأن يكونوا مخصوصين بها كما هو الغرض في الآية .[راجع دلائل الاعجاز لعبد القاهر الجرجاني ص(٣٣٨،٣٣٩) بتصرف تعليق أ/ محمود محمد شاكر ط/ مكتبة الاسرة عام٢٠٠٠م].

(٦٥) إن كان صاحب العلم من أهل القبلة فهما معا ، وإن كان من غيرهم فغايته نفع الناس ، وهو مقصدٌ حث عليه الدين .

آتاهم الله تعالى العلم التفلت منها صوَّره الله في صورة المنسلخ الذي يُنتزع من جلده، وذلك لما بين العلم ورقابته من التلازم قال تعالى: چگگگںںڻڻڻچ [الأعراف: ١٧٥]، وهو تشبيه بليغ لحال رجل ينازع نفسه ما أُشربته من نفع العلم وتوجيهاته.

ولنقف هنا ثلاث وقفات سريعة مع هذه الآيات قال تعالى: چگگگںںڻڻڻۀۀہہہہھھھےےۓۓڭڭڭۇۇۆۆۈۈۇٴۋۋۅۅۉۉېېىىئائائەەوچ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦] .

الأولى: عند قوله تعالى: { فَانْسَلَخَ مِنْهَا}. فالانسلاخ حقيقته: خروج جسد الحيوان من جلده، واستعير في الآية للانفصال المعنوي، والمراد الإقلاع عن العمل بما تقتضيه الآيات ويخلقه العلم في نفس صاحبه، وهي كلمة ترسم صورة عنيفة للتملص من هذه الآيات، لأن الانسلاخ حركة حسية قوية ترسم التنازع النفسي أو قل التشويه النفسي الذي يعايشه صاحب الحالة، والتعبير بالانسلاخ المستعمل عند العرب في خروج الحيات والثعابين أحيانا من جلودها يدل على أنه كان متمكنا من الآيات ظاهراً لا باطناً [٦٦] .

الثانية: عند قوله تعالى:{فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ .....(١٧٥).... وَاتَّبَعَ هَوَاهُ }. إن الطُّيُورُ عَلَى ٱلأَفِهَا تَقَّع، فهذا المشوه لما قام ملتاثا من رُغام الارض وجد الشيطانُ فيه بُغيته، وأصبح في لحظة واحدة تابعا، وبئس ما تبع ... إنه هواه . ومتبوعا ... ولكن ممن ؟ إنه الشيطان . قال الجوهري يقال: أتبعت القوم: إذا سبقوك فلحقتهم[٦٧]، وكأن المعنى جعلتهم تابعين لي بعدما كنت تابعا لهم، وهو مبالغة في اللحوق، إذ جُعل كأنه إمام للشيطان والشيطان يتبعه وهو من الذم بمكان[٦٨]، والجديد في التعبير هنا ان الشيطان تابع بينما يذكر القرآن دائما ان الشيطان متبوع وليس تابعا، لكن لما نازع الشخص ما

(٦٦) التحرير والتنوير للإمام الطاهر بن عاشور ١٧٦/٩/٥ ، والتصوير الفني في القرآن للأستاذ/ سيد قطب ص(٩٥) ط/ دار الشروق الطبعة الرابعة عشرة ١٤١٣هـ/١٩٩٣م ، وتفسير القرآن الحكيم المسمى تفسير المنار للأستاذ/ محمد رشيد رضا ج٩ ص٣٤٠ ط/ الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٦٧) الصحاح للجوهري باب العين فصل التاء.

(٦٨) روح المعاني للألوسي ١٦٣/٦.

لزمه من العلم أصبح للشيطان قائداً والعياذ بالله تعالى، ثم نري إمامه {الهوى} فلا رقابة من علم تردع، ولا قيد من دين يمنع، وهو بهذا الحال يصدق عليه الصورة القرآنية [كلب لا يكف عن اللهث] فهو لا يهدأ أبدا، لأن الهوي إمامه والشيطان من خلفه .

الثالثة: عند قوله تعالى:{..... فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ..}

اللهث: هو التنفس بسرعة وتحريك أعضاء الفم وخروج اللسان، وأكثر ما يعتري ذلك الحيوانات مع الحر والتعب، وهي حالة دائمة للكلب، ومعنى {إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ}: إن تفعل معه ما يشق عليه من طرد أو غيره . وقوله تعالى: {أَوْ تَتْرُكْهُ} أي: دون أن تحمل عليه، فهو يلهث على كل حال .

وهذا الثبات لحالة الكلب ناسبه التعبير بالجملة الاسمية {فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ}، ولم يقل: [فصار مثله كمثل إلخ] لما في التعبير بالجملة الاسمية من الدلالة على الثبوت والدوام .

فالعالم الذي يفقد رقابة علمه في همٍّ دائم مما شأنه أن يهتم به وما شأنه ألا يهتم به من صغائر الأمور وخسائس الشهوات، ولا ترى أحداً منهم راضياً بما أصابه من شهواته وأهوائه مهما بلغ منها، بل تراهم في شغل لتبرير موقفهم المنازع لما يحملوه في نفوسهم، نري ذلك واضحا في قوله تعالى: چھھےےۓۓڭڭڭۇۇۆۆۈۈۇۇڭڭوو ېېىىيييجئحئمئىئيبجبحبخبمبىبيتجتحتختمتىتيثجثحثختمتهجم [الأعراف: ١٦٩].

وتأمل صدر الآية المنبئ عن أن القوم على غير هدى، فكلمة {خلْف} بسكون اللام تستعمل في الذم كما هو الأشهر، إذ أنهم ورثوا عن أسلافهم العلم، لكنهم أخلدوا إلى الأرض واتبعوا أهوائهم، فاستحقوا الذم لوجود موجباته وهي:

الأول: قوله تعالى: {وَرِثُوا الْكِتَابَ} يدل على أن فعالهم عن علم لا عن جهل، وذلك أقبح .

الثاني: قوله تعالى: {يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى} ففي التعبير بقوله {يأخذون} دلالة على كونهم يتنافسون في الحصول على هذا العرض ويسعون إليه مع حقارته، رشح هذا المعني وقواه وجود اسم الاشارة {هَذَا}، وكلمة {الْأَدْنَى} المراد بها الدنيا، وتفسير العرض بأنه: ما يعرض ولا يثبت(٦٩) .

الثالث: قوله تعالى:{وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا} ومقول القول يدل على أنهم يستحقرون الذنب ولا يأبهون له، ويبررون لأنفسهم ما يستحلون به الحرام، وليس هذا من شأن المؤمن، فحال المؤمن مع الذنب وصفه ابن مسعود ﷺ بقوله:"إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه فقال به هكذا "(٧٠) .

الرابع: قوله تعالى:{وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ } فمع علمهم بحرمته وأمانيهم الكاذبة بالمغفرة إلا أنهم لا يتوبون وتراهم على الذنوب مصرون، وهذ ينبئ أنهم لا يشبعهم شيء ويأخذون هذا العرض لا لحاجة كما قال الحسن ﷺ(٧١)، فهم يأخذون ويأخذون والحال أنهم عن هذه الاعراض مستغنون، لكنه شأن الكلب الذي لا يكف عن اللهث في كل حال .

الخامس: قوله تعالى: { أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ } هذا دليل على أنهم كانوا يقولون الباطل لينالوا هذا العرض الحقير(٧٢)، وهذه قاصمة الظهر أن يجعل العالم علمه سبيلاً لبلوغ شهواته، فلا يستحل الحرام فقط بل يُحيل الحرام حلالاً ليأكل به ما شاء من عرض الدنيا .

(٦٩) المحرر الوجيز ٤٧٢/٢ ، وروح المعاني ١٤١/٦ بتصرف ، والتحرير والتنوير ١٦١/٩/٥بتصرف.
(٧٠) صحيح البخاري كتاب الدعوات باب التوبة ح رقم (٦٣٠٨) .
(٧١) النكت والعيون للإمام الماوردي ٢٧٥/٢ تحقيق :السيد عبد المقصود عبد الرحيم ط/دار الكتب العلمية.
(٧٢) البحر المحيط في التفسير لأبي حيان الاندلسي ٥/ ٢١١ بتصرف تحقيق: صدقي محمد جميل ط/ دار الفكر بيروت الطبعة ١٤٢٠ هـ .

إن شأن الرقابة العلمية أن تمنع أصحاب العلم من الصورة الذليلة التي قررها القرآن وهي حالة الاشتغال بأعراض الدنيا حتى يملأ ذلك عليهم كيانهم وتصوراتهم فلا يهتمون إلا به . وما أصدق وأقبح التشبيه لهذه الحالة بحال لهاث الكلب .

هذا وقد ذكر القرآن الكريم نموذجاً فريداً للعالم الذي تسلطت عليه رقابة علمه فسعي في الأرض كلها ابتغاء مرضاة الله تعالى ونفعا لعباده، مع أن الله تعالى آتاه مع العلم **المُلك** الذي غالبا ما تصحبه السطوة الذي تبعد صاحبها عن الجادة، وربما قص الله علينا قصته لئلا يكون لصاحب علم حجة في التزام النهج القويم.

هذا النموذج هو ذو القرنين الذي قال الله تعالى عنه ﭽﭑﭒﭓﭔﭕﭖﭗﭘﭙﭚﭛﭜﭝﭞﭟﭽ[الكهف: ٨٤، ٨٥]، والسبب هنا هو ما يُتوصل به إلى معرفة الأشياء من علم(٧٣) وفهم يحقق له التمكين في الأرض، والتعبير هنا يلفت النظر إلى أن ذا القرنين كان له مع هذا العلم سبيل، فوظفه لنفع الناس ورضا الله قال تعالى: {فَأَتْبَعَ سَبَبًا} ومعناه: . عند كثير من المفسرين . أنه الطريق أو المنزل الذي يوصله إلى حيث أراد، وأيا كان فقد انتفع من عطاء الله تعالى بأن أخذ بالأسباب التي سهلت له طريق التمكين .

ويلفت النظر في الآيات أن قوله: {فَأَتْبَعَ سَبَبًا} تكررت ثلاث مرات في قصته، كأن الرجل تتجدد عنده الطاقة الدافعة للأخذ بما علّمه الله تعالى كلما حاول الضرب في الأرض، وما هذه الطاقة إلا من أثر الرقابة التي لزمته من علمه . وإن الرقابة العلمية تبرز هنا في أمرين:

أحدهما: موافقته مرضاة الله في معاملة كل أحد بما يليق بحاله قال تعالى: ﭽﭫﭬﭭﭮﭯﭰﭱﭲﭳﭴﭵﭶﭷﭸﭹﭺﭻﭼﭽﭾﭿﮀﮁﮂﮃﮄﮅﮆﮇﮈﮉﮊﮋﮌﮍﮎﮏﮐﮑﮒﮓﮔﮕﮖﮗﮘﮙﮚﮛﮜﮝﮞﮟﮠﮡﮢﮣﮤﮥﮦﮧﮨﮩﮪﮫﮬﮭﮮﮯﮰﮱﯓﯔﯕﯖﯗﯘﯙﯚﯛﯜﯝﯞﯟﯠﯡﯢﯣﯤﯥﯦﯧﯨﯩﯪﯫﯬﯭﯮﯯﯰﯱﯲﯳﯴﯵﯶﯷﯸﯹﯺﯻﯼﯽﯾﯿﰀﰁﰂﰃﰄﰅﰆﰇﰈﰉﰊﰋﰌﰍﰎﰏﰐﰑﰒﰓﰔﰕﰖﰗﰘﰙﰚﰛﰜﰝﰞﰟﰠﰡﰢﰣﰤﰥﰦﰧﰨﰩﰪﰫﰬﰭﰮﰯﰰﰱﰲﰳﰴﰵﰶﰷﰸﰹﰺﰻﰼﰽﰾﰿﱀﱁﱂﱃﱄﱅﱆﱇﱈﱉﱊﱋﱌﱍﱎﱏﱐﱑﱒﱓﱔﱕﱖﱗﱘﱙﱚﱛﱜﱝﱞﱟﱠﱡﱢﱣﱤﱥﱦﱧﱨﱩﱪﱫﱬﱭﱮﱯﱰﱱﱲﱳﱴﱵﱶﱷﱸﱹﱺﱻﱼﱽﱾﱿﲀﲁﲂﲃﲄﲅﲆﲇﲈﲉﲊﲋﲌﲍﲎﲏﲐﲑﲒﲓﲔﲕﲖﲗﲘﲙﲚﲛﲜﲝﲞﲟﲠﲡﲢﲣﲤﲥﲦﲧﲨﲩﲪﲫﲬﲭﲮﲯﲰﲱﲲﲳﲴﲵﲶﲷﲸﲹﲺﲻﲼﲽﲾﲿﳀﳁﳂﳃﳄﳅﳆﳇﳈﳉﳊﳋﳌﳍﳎﳏﳐﳑﳒﳓﳔﳕﳖﳗﳘﳙﳚﳛﳜﳝﳞﳟﳠﳡﳢﳣﳤﳥﳦﳧﳨﳩﳪﳫﳬﳭﳮﳯﳰﳱﳲﳳﳴﳵﳶﳷﳸﳹﳺﳻﳼﳽﳾﳿﴀﴁﴂﴃﴄﴅﴆﴇﴈﴉﴊﴋﴌﴍﴎﴏﴐﴑﴒﴓﴔﴕﴖﴗﴘﴙﴚﴛﴜﴝﴞﴟﴠﴡﴢﴣﴤﴥﴦﴧﴨﴩﴪﴫﴬﴭﴮﴯﴰﴱﴲﴳﴴﴵﴶﴷﴸﴹﴺﴻﴼﴽ﴾﴿﵀﵁ﵐﵑﵒﵓﵔﵕﵖﵗﵘﵙﵚﵛﵜﵝﵞﵟﵠﵡﵢﵣﵤﵥﵦﵧﵨﵩﵪﵫﵬﵭﵮﵯﵰﵱﵲﵳﵴﵵﵶﵷﵸﵹﵺﵻﵼﵽﵾﵿﶀﶁﶂﶃﶄﶅﶆﶇﶈﶉﶊﶋﶌﶍﶎﶏ﶐﶑ﶒﶓﶔﶕﶖﶗﶘﶙﶚﶛﶜﶝﶞﶟﶠﶡﶢﶣﶤﶥﶦﶧﶨﶩﶪﶫﶬﶭﶮﶯﶰﶱﶲﶳﶴﶵﶶﶷﶸﶹﶺﶻﶼﶽﶾﶿﷀﷁﷂﷃﷄﷅﷆﷇﷰﷱﷲﷳﷴﷵﷶﷷﷸﷹﷺﷻ﴾ [الكهف: ٨٧، ٨٨].

(٧٣) اختلف أهل العلم في تحديد العلم الذي آتاه الله إياه ، فمن قائل إنه العلم الذي يستعين به الملوك من فتح المدائن وقهر الأعداء ، ومن قائل إنه الألسنة واللغات ، ومن قائل إنه منازل الأرض وأعلامها. جامع البيان ١١/٨ ، والتسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ٤٧٣/١ تحقيق : د/عبد الله الخالدي ط/دار الأرقم بن أبي الأرقم . بيروت الطبعة الأولى ١٤١٦هـ ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ص(٤٠٨٧).

ثانيهما: نجاحه في نفع الناس ورده الفضل كله لله، إذا قال بعد تمام بناء السد: ﭽﭑﭒﭓ ﭔﭕﭽ [الكهف: ٩٨]، فموقفه من العلم الذي آتاه الله إياه نابع مما أوجده العلم نفسه من توجيه للتصورات والافكار نحو مرضاة الله تعالى ونفع الناس .

هذا، ويبصر المرء في زماننا دوراً لأرباب العلم الذين ورثوا رقابته في الرقي لشعوب العالم، ولذا سوي القرآن بين نعمة الايجاد من العدم ونعمة العلم في أول سورة نزلت في القرآن فقال: ﭽﭙﭚﭛﭜﭝﭞﭟﭠﭡﭢﭣﭤﭥﭦﭧﭨﭩﭪﭫﭬﭭﭽ [العلق: ١ - ٥]. فأمر بالقراءة مستعينا عليها بالله تعالى لئلا تحيد عن طريقها المأجور النافع ثم ذكَّر بأمر الخلق والتكوين وأردفه بنعمة العلم(٧٤)، ليكون العالِم على ذكر بأن الذي وهبه نعمة الإيجاد من العدم هو الذي أفاض عليه من العلم فيعمل فيهما بما ينفع الناس ويرضاه رب الناس .

(٧٤) منهج القرآن في بناء المجتمع للإمام الأكبر الشيخ / محمود شلتوت صـ(٦٢) بتصرف ط/ دار الكتاب العربي بدون تاريخ.

المطلب الرابع

الرقابة المجتمعية

الرقابة المجتمعية:

قال تعالى: چۈ ۇ ۆ ۆچ [الحجرات:١٠] ومن مقتضيات الأخوة التضامن الاجتماعي بين المسلمين، والتضامن الاجتماعي هو إيمان الافراد بمسؤولية بعضهم عن بعض، هو إيمانهم بأن كل واحد منهم حامل لتبعات أخيه ومحمول بتبعاته على أخيه، فإذا ما احسن كان احسانه لنفسه ولأخيه، وإذا ما أساء كانت إساءته على نفسه وعلى أخيه(٧٥)، وهذا التضامن يحيا من رافدين:

رافد التعريف بالخير والفضائل والدعوة اليهما .

رافد الاستجابة له .

ومن التقاء الرافدين يتوحد الجميع في برزخ إصلاح المجتمع ونموه وقوته، وأول هذين الرافدين هو ما نطلق عليه الحسبة(٧٦) أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو ما أسميه (الرقابة المجتمعية) والمقصود بها دور أفراد المجتمع في رقابة بعضهم البعض ودفهم للصلاح والإصلاح، وهي مسئولية الجميع لأننا جميعا مسؤولون عن طهارة المجتمع وسلامته وصلاحه واستقامته قال تعالى: چۉ ې ې ې ىچ [البقرة: ٢٥١]، ومعناها:

(٧٥) منهج القرآن في بناء المجتمع ص(٨١) بتصرف .

(٧٦) الحسبة في اللغة تدلّ على العدِّ والحساب ، واحتسب على فلان الأمر أنكره عليه، واحتسب الأجر على الله : ادخره لديه ، وهي وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم بأمور المسلمين أن يعيِّن لذلك من يراه أهلًا له للإشراف على الشئون العامة في الأسواق وفي سائر المجامع العامة ، ومن مهماته المراقبة والمتابعة العامة، لضبط الحقوق، ورعاية الآداب، ومنع ما لا يأذن به الدين، وتأديب المخالفين ، وكان الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ﷺ أول من وضع في دولة المسلمين نظام الحسبة ، وقد اقتبسه من فعل الرسول ﷺ ، ومن توليته "سعيد بن سعيد بن العاص"ﷺ بعد فتح مكة على أسواقها ، وارتقى نظام الحسبة وتوسعت دائرة وظيفة المحتسب شيئًا فشيئًا، حتى شملت أمورا كثيرة ، فالمحتسب من يقوم بالاحتساب، أي: بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وشاع عند الفقهاء إطلاق هذا الاسم على من يعيِّنُه ولي الأمر للقيام بالحسبة، وأطلقوا عليه أيضًا اسم: والي الحسبة، أمَّا من يقوم بها من دون تعيينٍ من ولي الأمر فقد أطلقوا عليه اسم: المتطوع. [ينظر: أصول الدعوة د/ عبد الكريم زيدان ص(١٧٤) ط/ مؤسسة الرسالة الطبعة التاسعة ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، والحضارة الإسلامية أسسها ووسائلها وصور من تطبيقات المسلمين لها ولمحات من تأثيرها في سائر الأمم الشيخ / عبد الرحمن حسن حَبَنَّكَة الميداني ص(٦٣٤) ط/ دار القلم الطبعة الاولى ١٤١٨هـ-١٩٩٨م].

أنه لولا أن الله تعالى يدفع بعض الناس ببعض ويكف بهم فسادهم لغلب المفسدون وفسدت الأرض وبطلت منافعها من الحرث والنسل(٧٧) .

ولذا علمنا الله تعالى أن نقول في كل صلاة: ﭽﭾﭿﮀﮁﮂﮃﮄﮅﮆﭼ [الفاتحة: ٥، ٦] بصيغة الجمع مع أن الصلاة مطلوب فردي، لكن لكون العبادة تدريب على المعاملات خارجها كانت قراءة الفاتحة من أركان الصلاة لنتذكر بقراءتها مسؤولية الجميع عن الفرد ومسؤولية الفرد عن الجميع، وهذا هو التناسق العجيب الذي يلمسه من تأمل دين الاسلام، وألقي على مجموعه نظرة عامة بين عقائده وعباداته وبين ما يشرعه من المعاملات والحقوق وما يحمده من الأخلاق والآداب ..

ومن أجل هذا التناسق بين أجزاء الإسلام جاء الأمر في قوله تعالى: ﭽﯣﯤﯥﯦﯧﯨﯩﭼ [التوبة: ١٠٥] مركباً، فهو أمر به ثلاثة أوامر، أمر بالعمل، وأمر بأن تكون الجدية هي الروح المسيطر على العمل، وأمر بمسئولية الجماعة عن هذا العمل، فجوهر العمل في الاسلام تكليف وجدية ومسئولية جماعية(٧٨).

والرقابة المجتمعية صمام أمان للمجتمع، ودافع لمنع التقصير بين أفراده، ولم يجعلها الاسلام منوطة بأحد دون أحد، بل طلبها من الأفراد عبادة الله تعالى واستدامة لخيرية الأمة، بل تحديدا لهويتها التي باينت بها غيرها قال تعالى:

ﭽﭮﭯﭰﭱﭲﭳﭴﭵﭶﭷﭸﭹﭺﭻﭼ [آل عمران: ١١٠]، و«كان» عبارة عن وجود الشيء في زمان ماض على سبيل الإبهام، وليس فيه دليل على عدم سابق ولا على انقطاع طارئ، كأنه قيل: وُجدتم خير أمّة"(٧٩)، وقوله تعالى:{ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ....الآية} كلام مستأنف

(٧٧) مدارك التنزيل وحقائق التأويل للإمام النسفي ٩٩/١ ط/ مكتبة محمد علي صبيح وأولاده بالقاهرة بدون تاريخ .

(٧٨) أثر القرآن الكريم في اللغة العربية تأليف / محمد عبد الواحد حجازي ص(١٩١) مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية السنة الثالثة الكتاب الثالث والاربعون ذو القعدة ١٣٩١هـ /١٩٧١م .

(٧٩) الكشاف للزمخشري ٤٠٠/١ بتصرف .

يتضمن بيان كونهم خير أمة ما أقاموا على ذلك واتصفوا به، فإذا تركوا الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر زال عنهم ذلك(٨٠).

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع كونه من فروض الكفايات فلا يقوم به جميع أفراد الأمة ولكن ينبغي ألا يخلوا مسلم عن القيام بما يستطيع القيام به من هذا الأمر، على حسب مبلغ العلم ومنتهى القدرة (٨١)، كما ثبت عن رسول الله ﷺ:"من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان".(٨٢)، وقال الإمام الألوسي: "الظاهر أن الخطاب وإن كان خاصا بمن شاهد الوحي من المؤمنين أو ببعضهم لكن حكمه يصلح أن يكون عاما للكل كما يشير إليه قول عمر ﷺ فيما حكى قتادة «يا أيها الناس من سره أن يكون من تلكم الأمة فليؤد شرط الله تعالى منها» وأشار بذلك إلى قوله سبحانه {تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ}(٨٣)..

ومن عجيب أمر الرقابة المجتمعية أنها لا تتوقف على كمالٍ في القائم بها، بل يجب أن يقوم بها كل أحد حتى لو كان فيه ما ينكره ويدفعه، قال بعض الأصوليين فرض على الذين يتعاطون الكؤوس أن ينهى بعضهم بعضا، واستدل قائل هذه المقالة بقوله تعالى: ﭽﭾﭿﮀﮁﮂﮃﮄﮅﮆﮇﮈﮉﮊﮋﮌﮍﮎﮏﮐﮑﮒﮓﮔﮕﮖﮗﮘﮙﮚﮛﮜﮝﮞﮟﮠﮡﮢﮣﮤﮥﮦﮧﮨﮩﮪﮫﮬﮭﮮﮯﮰﮱﯓﯔﯕﯖﯗﯘﯙﯚﯛﯜﯝﯞﯟﯠﯡﯢﯣﯤﯥﯦﯧﯨﯩﯪﯫﯬﯭﯮﯯﯰﯱﯲﯳﯴﯵﯶﯷﯸﯹﯺﯻﯼﯽﯾﯿﰀﰁﰂﰃﰄﰅﰆﰇﰈﰉﰊﰋﰌﰍﰎﰏﰐﰑﰒﰓﰔﰕﰖﰗﰘﰙﰚﰛﰜﰝﰞﰟﰠﰡﰢﰣﰤﰥﰦﰧﰨﰩﰪﰫﰬﰭﰮﰯﰰﰱﰲﰳﰴﰵﰶﰷﰸﰹﰺﰻﰼﰽﰾﰿﱀﱁﱂﱃﱄﱅﱆﱇﱈﱉﱊﱋﱌﱍﱎﱏﱐﱑﱒﱓﱔﱕﱖﱗﱘﱙﱚﱛﱜﱝﱞﱟﱠﱡﱢﱣﱤﱥﱦﱧﱨﱩﱪﱫﱬﱭﱮﱯﱰﱱﱲﱳﱴﱵﱶﱷﱸﱹﱺﱻﱼﱽﱾﱿﲀﲁﲂﲃﲄﲅﲆﲇﲈﲉﲊﲋﲌﲍﲎﲏﲐﲑﲒﲓﲔﲕﲖﲗﲘﲙﲚﲛﲜﲝﲞﲟﲠﲡﲢﲣﲤﲥﲦﲧﲨﲩﲪﲫﲬﲭﲮﲯﲰﲱﲲﲳﲴﲵﲶﲷﲸﲹﲺﲻﲼﲽﲾﲿﳀﳁﳂﳃﳄﳅﳆﳇﳈﳉﳊﳋﳌﳍﳎﳏﳐﳑﳒﳓﳔﳕﳖﳗﳘﳙﳚﳛﳜﳝﳞﳟﳠﳡﳢﳣﳤﳥﳦﳧﳨﳩﳪﳫﳬﳭﳮﳯﳰﳱﳲﳳﳴﳵﳶﳷﳸﳹﳺﳻﳼﳽﳾﳿﴀﴁﴂﴃﴄﴅﴆﴇﴈﴉﴊﴋﴌﴍﴎﴏﴐﴑﴒﴓﴔﴕﴖﴗﴘﴙﴚﴛﴜﴝﴞﴟﴠﴡﴢﴣﴤﴥﴦﴧﴨﴩﴪﴫﴬﴭﴮﴯﴰﴱﴲﴳﴴﴵﴶﴷﴸﴹﴺﴻﴼﴽ﴾﴿﵀﵁ﵐﵑﵒﵓﵔﵕﵖﵗﵘﵙﵚﵛﵜﵝﵞﵟﵠﵡﵢﵣﵤﵥﵦﵧﵨﵩﵪﵫﵬﵭﵮﵯﵰﵱﵲﵳﵴﵵﵶﵷﵸﵹﵺﵻﵼﵽﵾﵿﶀﶁﶂﶃﶄﶅﶆﶇﶈﶉﶊﶋﶌﶍﶎﶏ﶐﶑ﶒﶓﶔﶕﶖﶗﶘﶙﶚﶛﶜﶝﶞﶟﶠﶡﶢﶣﶤﶥﶦﶧﶨﶩﶪﶫﶬﶭﶮﶯﶰﶱﶲﶳﶴﶵﶶﶷﶸﶹﶺﶻﶼﶽﶾﶿﷀﷁﷂﷃﷄﷅﷆﷇﷰﷱﷲﷳﷴﷵﷶﷷﷸﷹﷺﷻ﷼ﭼ [المائدة:٧٩]، لأن قوله{يَتَنَاهَوْنَ}و{فَعَلُوهُ} يقتضي اشتراكهم في الفعل وذمهم على ترك التناهي(٨٤).

وليس أكثر دفعا للأفراد من الالتزام بالرقابة على بعضهم البعض من:

(٨٠) فتح القدير للشوكاني ٤٢٥/١ بتصرف ط/ دار الكلم الطيب دمشق الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ..

(٨١) التحرير والتنوير ٤٩/٣ بتصرف .

(٨٢) صحيح مسلم كتاب الايمان باب (٢٠) بيان كون النهي عن المنكر من الايمان ،وأن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان ح رقم (٤٩) .

(٨٣) روح المعاني للإمام الألوسي ٤٤/٣ بتصرف.

(٨٤) المحرر الوجيز لابن عطية ٢٢٤/٢.

١) الخوف من اللعن . وهو أشد ما يعبر الله تعالى به عن مقته وغضبه . الذي استحقه من قبلنا بتفريطهم في هذه الرقابة قال تعالى: چٹٹڤڤڤڤڦڦڄڄڄڄڃڃچچچچڇڇڇڇڍڍڌڌڎڎچ [المائدة: ٧٨، ٧٩]. فسبب اللعن هو عدم التناهي أي: كانوا لا ينهى بعضهم بعضاً عن المنكر، ولذا دام المنكر طويلا بطول الفترة بين داوود وعيسى عليهما السلام .

٢) طلب النجاة من الفتنة قال تعالى: چ□□□□□□□□□□□□□ىىيچ [الأنفال:٢٥]. وفي بيان الفتنة في هذه الآية قال ابن عباس (رضي الله عنهما): أمر الله عز وجل المؤمنين أن لا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم الله بعذاب يصيب الظالم وغير الظالم(٨٥) .

ولذا جعل القرآن فريضة الرقابة المجتمعية من سمات المجتمع كله لأنها مسؤولية تضامنية لنجاة جميع الأفراد فقال تعالى: چکگگگگڳڳڳڳڱڱڱڱںںڻڻڻڻۀۀہہھھچ [التوبة: ٧١].

بينما المجتمعات الهالكة سماتها ضد هذه السمة الأصيلة فقال في مجتمع المنافقين والكافرين: چۀۀہہھھےےۓۓچ [التوبة: ٦٧].

وبيّن النبي ﷺ في تشبيه رائع أن نجاة المجتمع كله منوط بتفعيل هذه الرقابة فقال: " مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا، ونجوا جميعا"(٨٦). فحتى لو كان المخالف يرى ان أذاه لا يتعداه لغيره وذلك ما دلنا عليه النبي ﷺ في قوله { لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا } فيجب على المجتمع منعه، لأن هلاكه كفرد هلاك

(٨٥) المرجع السابق ٢/٥١٥.
(٨٦) صحيح البخاري كتاب الشركة باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه ح رقم (٢٤٩٣).

للمجتمع بأسره، وهذا من عجيب تناسق الإسلام في تشريع قضية التكافل النابع من أخوة الدين .

المبحث الثالث

صور عاقبة الرقابة في القرآن الكريم

المطلب الأول
الصور الهالكة

إذا كانت التجربة دليل النظرية، فالقصة القرآنية دليل من الله تعالى إلى المخاطبين أن طبع البشرية لا يتغير، وأن البشرية من قبل كلفهم الله تعالى بأمثال ما كلفنا به، فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات، فهي أسلوب تربية وتوجيه ينفذ إلى أغوار النفس البشرية فينزع بها إلى الكمال، ويزجرها عن النقائص في قالب لغوي بديع، وبنظرة واقعية تتوافق وطباع البشر كلهم من لدن آدم إلى يوم الناس هذا .

تأمل قصة أصحاب الجنة في سورة (ن)، وقد اختل عند ذويها أمر الرقابة بسبب طغيان حب المال على حب الخير الناس ونفعهم، فهلك ما أحبوه، وضاع ما أمّلوه، فحين أرادوا جمع الثمر في خفية من المساكين لئلا ينالوا منهم شيئاً ناسين الله تعالى ورقابته عليهم حتى نسوا أن يستثنوا قال تعالى: ﭼﭙﭚﭛﭜﭝﭞﭟﭼ [القلم:١٧ - ١٨]، أي: أن يقولوا: إن شاء الله. كما قال أكثر أهل التفسير (٨٧) .، وهذا يدل على أن الله تعالى غاب عن عقولهم بالكلية، وترجم ذلك ما صوره القرآن في بيان حركاتهم الظاهرة وخلجاتهم المضمرة حين قال: ﭼﭽﭾﭿﭼ [القلم:٢٣] فكم تقذف هذه الكلمة ﭼﭾﭼ من الصور والأخيلة في نفس القارئ، إنه يُصور الهمس وعض الشفاه في تربص، وميل الرقاب في حذر، وتخفيف الوطء في قلق، ودوران العيون في تنبه كيلا يعرف أحد عنهم شيئاً، ثم تكون المفاجأة لهم إذ يصلون إلى مكانهم المعهود فلا يجدون شيئاً إذ الرقيب قد فعل ما يردهم للحق والخير قال تعالى: ﭼﭠﭡﭢﭣﭤﭥﭦﭧﭨﭼ [القلم: ١٩، ٢٠]، إنه تصوير نابض جياش لما دار في النفس والحس، فهو تصوير لا تعرف اللغات تصويرًا للحرص والتعجل وعدم التردد في نية السوء ونسيان الرقيب مثله (٨٨).

---

(٨٧) زاد المسير لابن الجوزي ٤/٣٢٣ تحقيق: عبد الرزاق المهدي ط/ دار الكتاب العربي الطبعة الأولى١٤٢٢هـ.

(٨٨) راجع البيان القرآني أ.د/ محمد رجب البيومي ص(٢١١) وما بعدها بتصرف من سلسلة البحوث الإسلامية ط/ مجمع البحوث الإسلامية السنة الثالثة الكتاب الواحد والثلاثون ١٣٩١هـ/١٩٧١، والمعجزة الكبرى أ/ محمد أبو زهرة ص(١٠١) وما بعدها بتصرف ط/ دار الفكر العربي ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

ويؤيد أنهم ما كانوا يذكرون من رقابة الله تعالى عليهم أو رقابتهم النفسية شيئاً، أن أوسطهم كان قد حضهم على رقابة الله تعالى وطاعته قبل مباشرتهم لهذه الأعمال ووقت مشاورتهم كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﭽ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﭼ [القلم: ٢٨] إذ أنها صدرت وقت التلاوم فيما بينهم عند رؤية الجنة البائرة .

وهذا التذكير منه يوقفنا على أهمية أمر الرقابة المجتمعية التي قام بها، وكيف أن القيام بها والإصرار عليها فيه النجاة، لكنه قام بدور رقابة خاملة غير فعال، لذا حرمه الله ثمر الجنة كما حرمهم، وهذه سنة الله تعالى في خلقه .

ونعود للقصة التي شكل فيها القائم بدور الرقيب من المجتمع بداية الفرج، إذ أنه بعد تذكيرهم وقت بوار الجنة بالله تعالى أقبلوا على أنفسهم باللوم ونطقت ألسنتهم بما امتنعت عن ذكره من قبل، فقالوا جميعا: ﭽ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﭼ [القلم: ٢٩]، فأبدلهم الله تعالى خيراً منها قال تعالى: ﭽ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﭼ [القلم:٣٢] قال ابن مسعود ﷺ: بلغني أن القومَ لما أخلصوا وعلم الله صدقهم، أبدلهم الله ﷻ بها جنةً يقال لها الحَيَوَانُ، فيها عِنَبٌ يَحْمِلُ البغلُ العنقُودَ منها(٨٩).

إن الرقابة تشكل صمام الأمان للفرد والمجتمع من الغي وانتشاره، فهي حماية من البوار، وعصمة من الندم، ورفعة في الدنيا والأخرة .

وهاك قصة أصحاب السبت كصور من صور الهلاك لمن تركوا الرقابة، أو أهملوا أهلها، قال تعالي: ﭽ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ ﯶ ﯷ ﯸ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ ﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﰃ ﰄ ﰅ ﰆ ﰇ ﰈ ﰉ ﰊ ﰋ ﰌ ﰍ ﰎ ﰏ ﰐ ﰑ ﰒ ﰓ ﰔ ﰕ ﰖ ﰗ ﰘ ﰙ ﰚ ﰛ ﰜ ﰝ ﰞ ﰟ ﰠ ﰡ ﰢ ﰣ ﰤ ﰥ ﰦ ﰧ ﰨ ﰩ ﰪ ﰫ ﰬ ﰭ ﰮ ﰯ ﰰ ﰱ ﰲ ﰳ ﰴ ﰵ ﰶ ﰷ ﰸ ﰹ ﰺ ﰻ ﰼ ﰽ ﰾ ﰿ ﱀ ﱁ ﱂ ﱃ ﱄ ﱅ ﱆ ﱇ ﱈ ﱉ ﱊ ﱋ ﱌ ﱍ ﱎ ﱏ ﱐ ﱑ ﱒ ﱓ ﱔ ﱕ ﱖ ﱗ ﱘ ﱙ ﱚ ﱛ ﱜ ﱝ ﱞ ﱟ ﱠ ﱡ ﱢ ﱣ ﱤ ﱥ ﱦ ﱧ ﱨ ﱩ ﱪ ﱫ ﱬ ﱭ ﱮ ﱯ ﱰ ﱱ ﱲ ﱳ ﱴ ﱵ ﱶ ﱷ ﱸ ﱹ ﱺ ﱻ ﱼ ﱽ ﱾ ﱿ ﲀ ﲁ ﲂ ﲃ ﲄ ﲅ ﲆ ﲇ ﲈ ﲉ ﲊ ﲋ ﲌ ﲍ ﲎ ﲏ ﲐ ﲑ ﲒ ﲓ ﲔ ﲕ ﲖ ﲗ ﲘ ﲙ ﲚ ﲛ ﲜ ﲝ ﲞ ﲟ ﲠ ﲡ ﲢ ﲣ ﲤ ﲥ ﲦ ﲧ ﲨ ﲩ ﲪ ﲫ ﲬ ﲭ ﲮ ﲯ ﲰ ﲱ ﲲ ﲳ ﲴ ﲵ ﲶ ﲷ ﲸ ﲹ ﲺ ﲻ ﲼ ﲽ ﲾ ﲿ ﳀ ﳁ ﳂ ﳃ ﳄ ﳅ ﳆ ﳇ ﳈ ﳉ ﳊ ﳋ ﳌ ﳍ ﳎ ﳏ ﳐ ﳑ ﳒ ﳓ ﳔ ﳕ ﳖ ﳗ ﳘ ﳙ ﳚ ﳛ ﳜ ﳝ ﳞ ﳟ ﳠ ﳡ ﳢ ﳣ ﳤ ﳥ ﳦ ﳧ ﳨ ﳩ ﳪ ﳫ ﳬ ﳭ ﳮ ﳯ ﳰ ﳱ ﳲ ﳳ ﳴ ﳵ ﳶ ﳷ ﳸ ﳹ ﳺ ﳻ ﳼ ﳽ ﳾ ﳿ ﴀ ﴁ ﴂ ﴃ ﴄ ﴅ ﴆ ﴇ ﴈ ﴉ ﴊ ﴋ ﴌ ﴍ ﴎ ﴏ ﴐ ﴑ ﴒ ﴓ ﴔ ﴕ ﴖ ﴗ ﴘ ﴙ ﴚ ﴛ ﴜ ﴝ ﴞ ﴟ ﴠ ﴡ ﴢ ﴣ ﴤ ﴥ ﴦ ﴧ ﴨ ﴩ ﴪ ﴫ ﴬ ﴭ ﴮ ﴯ ﴰ ﴱ ﴲ ﴳ ﴴ ﴵ ﴶ ﴷ ﴸ ﴹ ﴺ ﴻ ﴼ ﴽ ﴾ ﴿ ﵀ ﵁ ﵂ ﵃ ﵄ ﵅ ﵆ ﵇ ﵈ ﵉ ﵊ ﵋ ﵌ ﵍ ﵎ ﵏ ﵐ ﵑ ﵒ ﵓ ﵔ ﵕ ﵖ ﵗ ﵘ ﵙ ﵚ ﵛ ﵜ ﵝ ﵞ ﵟ ﵠ ﵡ ﵢ ﵣ ﵤ ﵥ ﵦ ﵧ ﵨ ﵩ ﵪ ﵫ ﵬ ﵭ ﵮ ﵯ ﵰ ﵱ ﵲ ﵳ ﵴ ﵵ ﵶ ﵷ ﵸ ﵹ ﵺ ﵻ ﵼ ﵽ ﵾ ﵿ ﶀ ﶁ ﶂ ﶃ ﶄ ﶅ ﶆ ﶇ ﶈ ﶉ ﶊ ﶋ ﶌ ﶍ ﶎ ﶏ ﶐ ﶑ ﶒ ﶓ ﶔ ﶕ ﶖ ﶗ ﶘ ﶙ ﶚ ﶛ ﶜ ﶝ ﶞ ﶟ ﶠ ﶡ ﶢ ﶣ ﶤ ﶥ ﶦ ﶧ ﶨ ﶩ ﶪ ﶫ ﶬ ﶭ ﶮ ﶯ ﶰ ﶱ ﶲ ﶳ ﶴ ﶵ ﶶ ﶷ ﶸ ﶹ ﶺ ﶻ ﶼ ﶽ ﶾ ﶿ ﷀ ﷁ ﷂ ﷃ ﷄ ﷅ ﷆ ﷇ ﷈ ﷉ ﷊ ﷋ ﷌ ﷍ ﷎ ﷏ ﷐ ﷑ ﷒ ﷓ ﷔ ﷕ ﷖ ﷗ ﷘ ﷙ ﷚ ﷛ ﷜ ﷝ ﷞ ﷟ ﷠ ﷡ ﷢ ﷣ ﷤ ﷥ ﷦ ﷧ ﷨ ﷩ ﷪ ﷫ ﷬ ﷭ ﷮ ﷯ ﷰ ﷱ ﷲ ﷳ ﷴ ﷵ ﷶ ﷷ ﷸ ﷹ ﷺ ﷻ ﷼ ﷽ ﷾ ﷿ ﭼ [الأعراف: ١٦٣ـ ١٦٤ – ١٦٥]

يقول الله تعالى لنبيه اسأل هؤلاء اليهود بحضرتك عن قصة أسلافهم الذين خالفوا أمر الله، ففاجأتهم نقمته على احتيالهم في المخالفة، إذ كانوا بقرية جاورت البحر فتجاوزوا حد الله في تحريم الصيد يوم السبت، وزادهم الله فتنة في أن الحِيتان تأتيهم يوم السبت

(٨٩) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ٤٠١/٢ ، والجواهر الحسان للثعالبي ٤٦٩/٥.

ظاهرة على وجه الماء، ولا تأتيهم في غيره أصلا، وحيال هذا الحال افْتَرَق الناس على ثَلَاث فرق:

فرقة اصطادت ووقعت في الحرام . وَفرْقَة نهت وَأمرت بِالْمَعْرُوفِ وهم القائمين بالرقابة الفاعلة . وَفرْقَة سكتت بل عاتبت من وعظ وتحرك .

ثم كانت العاقبة لما نسوا ما ذكروا به، ولم يخطر ببالهم شيء من تلك المواعظ أصلاً، فكانت النجاة للذين ينهون عن السوء، والهلاك للمعتدين(٩٠) .

ولنقف لحظة مع التصوير القرآني للقصة إذ ذكر أن القوم افترقوا ثلاث فرق:

واحدة عاصية، وثانية مراقبة خاملة، وثالثة مراقبة متحركة فاعلة .

ووجدنا ظاهر النظم القرآني لم يذكر غير نجاة فرقة واحدة (٩١)، وهي التي حركت الرقابة فيها الحفاظ على أمر الله قال تعالى: چٹٹٹٹڤڤڤڤڦڦچ ووجدنا أن الهلاك قد لحق بالعصاة قال تعالى: چڦڦڄڄڄڄچ چچ وسكت القرآن عن عاقبة الفرقة التي لم تتحرك بالرقابة في مجتمعها، فلا نعلم أكانت ناجية أم هالكة، حتى ابن عباس (رضي الله عنهما) تردد في أمرها (٩٢)، وهذا لسكوت ظاهر النظم عن عاقبتهم ، وما هذا إلا لهوانهم، وانعدام دورهم في الحياة، فهم أقل من أن يذكر القرآن عاقبة خاصة بهم، فلا دور بهم منوط، ولا أمل في الإصلاح والتنمية بهم موجود .

(٩٠) راجع تفسير القرآن لأبي مظفر السمعاني ٢/٢٢٦ تحقيق: آسر بن إبراهيم ط/ دار الوطن الرياض الطبعة الأولى ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م ، ومحاسن التأويل للقاسمي ٥/٢٠٩ تحقيق : محمد باسل عيون السود ط/ دار الكتب العلمية . بيروت الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ ، والتفسير القرآني للقرآن عبد الكريم الخطيب ٥/٥٠٣ ط/ دار الفكر العربي ، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي تحقيق: عبد الرحمن بن معلا ط/مؤسسة الرسالة الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ /٢٠٠٠ م.

(٩١) فتح القدير للشوكاني ٢/٢٩٠.

(٩٢) قال ابن عباس: أدري أن الفرقة العاصية قد هلكت، وأن الفرقة الناهية قد نجت، ولا أدري ما حال الفرقة الساكتة ، قال عكرمة: ما زلت أنزله – يعني: من الآيات درجة درجة – وأبصره — يعني : ابن عباس – حتى قال: نجت الفرقة الساكتة، وكساني بذلك حلة. [تفسير القرآن للسمعاني ٢/ ٢٢٦] .

وحمادي القول في ذلك أن العاقبة تكون أبدا مع أهل الرقابة الذين يقومون بواجب دفع الفساد والتعدي عن أنفسهم ومجتمعهم، وعداهم يتعدى إليهم الهلاك .

المطلب الثاني

الصور الناجية

يرشد النظر إلى أن العبد حين يلزم طريق الدين تخبو في قلبه نار الرذيلة وتنفجر فيه عين من الفضيلة لأنه أطاع أمر الله تعالى، ولا شك أن وقت غراس حب ذلك الطريق يكون في مهد التربية، لذا أمر النبي ﷺ تعليم الأطفال الصلاة قبل البلوغ، لا لتكليف العبادة بل لنغرس فيهم الآداب والأخلاق كالاعتماد على النفس، والمراقبة، والوفاء بالوعد، والمثابرة على العمل، والمحافظة على الوقت وغير ذلك من الخلال التي إذا ما ازْوَر عنها يوماً فسريعاً ما يعود، لأن به نفساً ألفت الخير وتربت عليه، ودوام ذلك يفتقر . بعد توفيق الله تعالى . إلى عين يقظة ترمق العبد وترقبه على الدوام ليستحيل ذلك الطريق ديمة لا تنفك عنه أبداً، مستصحبا لازم هذا الطريق في كل أحيانه حتي اليقين كما قال تعالى: چيجيدتدثچ [الحجر: ٩٩]، أي: الموت[٩٣]، وهذه العين اليقظة هي (الرقابة) التي توصد الأبواب في وجه النفوس الجامحة نحو الرذيلة، وهي مما تكتسب من التربية والدين، وفي القرآن ما يبين ذلك .

فقصة يوسف عليه السلام فيها من دواعي الجموح والخروج عن الجادة ما فيها، إلا أن التربية والدين هما مداد رقابته التي كانت عصام يوسف عليه السلام في مراحل حياته، فمراحل حياته عليه السلام عبارة عن بيان لأنواع الرقابة المختلفة:

فنجده عليه السلام بعد محنته التي انتهت بدخوله قصر الملك بعد المبيت في الجب، ونقله من الشام إلى مصر، بدأت مرحلة التمكين الذي أشار الله تعالى لها بقوله: چوۇۆۈۋۉچ [يوسف:٢١]، ولكن تخلل هذه المرحلة محنة عظيمة أظهرت عاقبة الرقابة، فقد بلغ يوسف عليه السلام أشده وزينه الله تعالى بالحكمة والعلم قال تعالى: چ□□□□□□□چ [يوسف:

(٩٣) راجع حاجة البشرية إلى معرفة صحيحة ومجتمع إسلامي أ. أبو الحسن الندوي ص(٣٤) ط/ دار الصحوة الطبعة الأولى ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م ، ومجلة منبر الإسلام مقال التربية والأخلاق أ. محمد عطية الإبراشي ص(٩٣) العدد (٤) السنة (٢٠) ربيع الآخر١٣٨٢م سبتمبر ١٩٦٢م .

٢٢]، وأتاه شطر الحسن(٩٤)، فصار ذا شخصية متزنة وقورة، مما زاده قبولاً وإعجابا من الآخرين، ولفت مبكراً نظر امرأة العزيز له، فظلت تراوده، والمراودة طلب الشيء برفق، وهي مفاعلة من واحد نحو داويت المريض(٩٥)، وذلك يعني أنها دلت بإشارات موحية أكثر من مرة على بغيتها ، ثم أعلنت في قحة طلبها بالرغبة فيه، والقرآن عرض آخر لقطات المراودة قال تعالى: چٱٻٻٻٻپپپپڀڀڀڀٺٺٺٺٿٿٿٿچ [يوسف: ٢٣]، ولنقف لحظة عند منطوق يوسف عليه السلام الدال على أن رقابته لربه نجته من الوقوع في الرذيلة التي دعا لها الجمال والجاه والمال، ولاحظ عرض القرآن لامرأة سقط حياؤها، وأذلها الشبق، وزال عنها حصن العفة حتى جعلت يوسف عليه السلام يطلب السجن هربا من دعوتها ودعوة أمثالها چڈڈژژڑڑکک کچ [يوسف: ٣٣]، فذلك الشاب قدوة لكل من يطلب معالى الأمور(٩٦)، فقد دخل السجن لرقابته لربه ورفضه الوقوع في الرذيلة أو الاستجابة إلى مقدماتها، وكانت العاقبة له إذ أنهم أرادوا بعد حين إخراجه من السجن، فطلب التحقيق، وأعلنت المرأة الحقَ: چ□□□□□□□ىىيي□□چ[يوسف: ٥١] . فهذا بيان الحق منها أن عاقبة الرقابة النجاة، ولو أن يوسف عليه السلام انساق لرغباتها وخاف من تهديدها بالسجن لكان غير الذي كان . فلله الحمد أن جعل العاقبة لأوليائه ..

وتأمل عاقبة الرقابة العلمية التي بدت في السجن حين جاءه الرسول يستفتيه في رؤيا الملك، فتوجه بما آتاه الله من العلم إلى نفع الناس وفسر تلك الرؤيا للملك، ولو لم يورثه العلم رقابته لكتم علمه عن ذلك الرسول، لكنه سقى الملك من منهل علمه

(٩٤) جاء في حديث الإسراء الطويل عن أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال :{.... فإذا أنا بيوسف ﷺ، إذا هو قد اعطي شطر الحسن....} صحيح مسلم كتاب الإيمان باب (٧٤) الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات ح رقم (٢٥٩).

(٩٥) المفردات مادة [رود] ، والبحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ٢٩٣/٤ .

(٩٦) مجلة منبر الإسلام مقال من أدب القصة في القرآن الكريم أ. البهي الخولي ص(٥٧) العدد (٥) السنة (٢٠) جمادى الأولى ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م.

فكان ذلك سبيل نجاته بعد إذ طلب الملك لقاءه، قال تعالى: چہھھچ [يوسف: ٥٠]، ثم كان من السجن فكاكه .

هذه عاقبة الرقابة في قصة يوسف عليه السلام جعلته على خزائن الأرض، بعد حبسه في مضيق منها، وزينه الله بزينة الجمال والعلم والحكمة، فعمل بها ما يُرضى الله تعالى عنه .

وتأمل دعاء يوسف عليه السلام في نهاية آلامه ومشهد الفرحة الذي جمعه بأبويه وأهله: چۋۅۉۉېېچ [يوسف: ١٠١] لتجد رجلاً متوسلاً إلى الله بآلائه، راكبا نعم الله ليصل إلى مرضاته، وتلك غاية يعلمها من أيقن برقابة مولاه، فلا يبغي إلا رضاه، ولا ينظر إلا لعاقبته بين يدي من خلقه وسواه .

ونجد في قصة مريم عليها السلام رقابة جعلت فتاة ترى رجلاً وهي منقطعة لله تعالى في خلوة تعتصم بربها، لأنها على يقين أن الله تعالى رقيب عليها لا يغيب عنه حالها: چڑڑ ڑڑکککک کچ [مريم:١٨]، وعندما يخبرها بأمر الله بها لم يأتِ بخلدها ما يدور ببال كثيرات غيرها ....

ما تقول لأهلها ؟

أو كيف تظهر أمام الناس بحملها ؟

بل سألت عن كيفية تنفيذ أمر الله بها چگگںںڻڻۀۀہہچ [مريم: ٢٠] ولا علاقة لها بما بعد ذلك، ولا بما يؤول إليه أمرها ..

ونجد الرقابة تزيل خوف العبد وتقر الإيمان في قلبه، وتدفعه لاقتحام العقبة تنفيذاً لأمر الله تعالى، ويقينا في وعده، فموسى وهارون عليهما السلام انطلقا إلى فرعون لما أمرهما الله تعالى بالذهاب لفرعون ودعوته باللين چڻڻۀۀہہھھےےچ [طه:٤٣ /٤٤] فأعلنا خوفهما من بطشه ومبادرته بعقابهما: چےۓۓڭڭۇۇۆۆۈچ [طه: ٤٥]، فأزال الله تعالى خوفهما وقرر حقيقة إيمانية فقال تعالى: چۇۇۆۆۈۈېچ [طه: ٤٦]، فالله تعالى مع

جنوده بالحفظ والعناية والرعاية [٩٧]، والمتتبع للقصة يري معيته تعالى ورقابته كيف نجتهما من كل كرب، فاستحضار قرب الله تعالى من العبد ورقابته عليه ينقذ العبد من الشدائد، تأمل قول موسى عليه السلام حين يأس قومه من النجاة من جند فرعون چ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ چ [الشعراء: ٦٢]، وكانت العاقبة النجاة ... فتأمل .

(٩٧) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث د/ صلاح عبد الفتاح الخالدي ٢/٣٩٨ بتصرف ط/ دار القلم الطبعة الأولى ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

الخاتمة

بعد هذه الرحلة مع كتاب الله تعالى في مركب الرقابة نستخلص ما يلي:

أن القارئ . بحمد الله أولاً . قد أيقن أن الرقابة هي النجاة في الدنيا والآخرة .

أما الدنيا فإن العبد الذي يوقن بأمر الرقابة اعتقاداً وعملاً يختار أفضل الأقوال، ويعاشر الناس بأفضل الأحوال، ويتقن عمله بأفضل ما يمكن أن يصل إليه البشر، فلا يصل إليه أحد في إحسانه وإتقانه إلا من كان مثله، فيكسب محبة الناس واجتماعهم حوله، فيحبب الناس في الخير والإتقان وأداء الواجب على أحسن حال، ويقلل دائرة التقصير في الأعمال، والبذيء من الأقوال والأحوال، ويغري الناس بتقليده فهو بذلك يرفع شأن المجتمع كله، ويكون مع أمثاله لبنات قوية في مجتمع ناهض وحضارة مثالية .

وأما الآخرة فإن العبد الذي يخالق الناس بأحسن الخلائق، ويسعى دائماً لرضى الله تعالى ونفع الناس، ويُقرب بسلوكه الناسَ من الخير كأنه يوصيهم به، فما يكون عمله إلا توصية بشيء من الحق، وباستمراره علي الدرب يعطيهم معني التوصية بالصبر على ذلك الحق، ومعلوم أن التواصي بالحق والصبر عليه من عناصر النجاة كما قال تعالى: چٱٻ ٻ ٻ ٻ پ پ پ پ ڀ ڀ ڀ ڀ ٺ ٺ ٿ چ [العصر: ٣/١] .

هذه واحدة، أما الثانية فإن الحضارات التي بلغت شأواً عظيماً في حضارتها عندما تسن قانوناً لظاهرة انتشرت تحاول أن تتوعد المخالفين بأقسى عقوبة ممكنة، وتنشر ذلك إعلامياً لإرهاب الناس من الإقدام عليه، وتوفر له من آليات الرقابة على تنفيذه وعدم مخالفته الكثير، وإذا طلبت من شعوبها طلبا فإنها تنفق لمن يلتزم الجوائز والمنح، وتسلك في سبيل الإغراء بالفعل كل السبل، ولكنها تجري عرضا على غير طريق في المنع أو الطلب . وتكاد النفقات في هذا وذاك توقف نشاط الدولة .

أما أسلوب الرقابة في القرآن فلا يكلف المجتمع أو الدولة شيئاً، اللهم إلا الإعلان عن الطلب أو المنع، ثم إيقاظ أساليب الرقابة في القلوب، وهي بذاتها تعمل، وتظل آيات

القرآن مداداً لمعانيها لا يتوقف، كل ذلك بلا هلاك لمال أو ضياع لجهد، وقد ظهر ذلك في أثناء البحث .

أما الثالثة: فأقول إن فهم القرآن وتطبيق قيمه من شأنه أن يرفع قيمة المجتمع وينهض به، فلا يحتاج المجتمع الذي أعلن الله تعالى إسلامه أن يبحث عن طرق لرفعة، وأساليب لنهضة، بل عليه أن يقرأ كتاب الله المنظور من خلال كتابه المقروء، ثم يتفكر ليجد الفلاح وأسبابه فيطبقه، والهلاك وطرقاته فلا يقربه .

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك .
وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الكرام والتابعين له بإحسان إلى يوم الدين .

أهم المراجع

القرآن الكريم .

أولاً: كتب التفسير

- التحرير والتنوير للعلامة الطاهر بن عاشور ط/ دار سحنون التونسية .
- جامع البيان للإمام الطبري ط/ دار المعرفة الطبعة الرابعة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .
- حاشية القونوي على تفسير البيضاوي ط/ دار الكتب العلمية الطبعة الأولى ١٤١٢هـ / ٢٠٠١م.
- حاشية زاده على البيضاوي ط/ دار الكتب العلمية .
- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي ط/ دار القلم .
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي ط/ دار الفكر بيروت .
- روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني للإمام الألوسي ط/ دار الفكر عام ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.
- عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي للشهاب الخفاجي ط / دار صادر بيروت.
- فتح الغيب في الكشف عن قناع الريب للإمام الطيبي أو حاشية الطيبي على الكشاف الطبعة الأولى ١٤٣٤هـ /٢٠١٣م من مطبوعات جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم .
- محاسن التأويل للقاسمي ط/ دار الكتب العلمية الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ.
- مفاتيح الغيب للإمام الرازي ط/ دار الغد العربي الطبعة الأولى ١٤١٢هـ /١٩٩٢م .

ثانياً: الدراسات القرآنية:

- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ط/ مكتبة دار التراث الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م
- البيان القرآني أ.د/ محمد رجب البيومي ط/ مجمع البحوث الإسلامية السنة الثالثة الكتاب الواحد والثلاثون ١٣٩١هـ/١٩٧١.
- تحبير التيسير في القراءات العشر لابن الجزري ط/ دار الفرقان – الأردن الطبعة الأولى ١٤٢١هـ /٢٠٠٠م
- التصوير الفني في القرآن للأستاذ/ سيد قطب ط/ دار الشروق الطبعة الرابعة عشرة ١٤١٣هـ/١٩٩٣م

- القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث د/ صلاح عبد الفتاح الخالدي ط/ دار القلم الطبعة الأولى ١٤١٩هـ/١٩٩٨م
- المعجزة الكبرى أ/ محمد أبو زهرة ط/ دار الفكر العربي ١٤١٨هـ/١٩٩٨م
- منهج القرآن في بناء المجتمع للإمام الأكبر الشيخ / محمود شلتوت ط/ دار الكتاب العربي بدون تاريخ .
- نظرات في القرآن للشيخ محمد الغزالي ط/دار الكتب الحديثة الطبعة الثانية١٣٨٠هـ/١٩٦١م .

ثالثاً: كتب السنة وشروحها

- (صحيح البخاري) ط/ دار طوق النجاة الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ .
- (صحيح مسلم) ط / دار إحياء التراث العربي . بيروت .
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري للإمام ابن حجر العسقلاني ط/ دار الريان للتراث الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.
- المستدرك على الصحيحين للحاكم ط/ دار الكتب العلمية الطبعة الأولى ١٤١١هـ / ١٩٩٠م.

رابعاً: كتب اللغة والمعاجم

- أساس البلاغة لأبي القاسم الزمخشري ط/ دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م.
- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروز آبادي ط/ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
- تهذيب اللغة للأزهري ط/ دار إحياء التراث العربي الأولى ٢٠٠١م .
- الخصائص لابن جني ط/ الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة الرابعة.
- دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني تعليق أ/ محمود محمد شاكر ط/ مكتبة الأسرة عام٢٠٠٠م .
- الكليات للكفوي ط/ مؤسسة الرسالة . بيروت.
- لسان العرب لابن منظور ط/ دار صادر الطبعة الثالثة ١٤١٤ هـ .
- المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده ط/ دار الكتب العلمية الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠م.
- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للفيومي ط/ المكتبة العلمية .
- مقاييس اللغة لابن فارس ط/ دار الفكر ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .
- المغرب في ترتيب المعرب للمطرزي ط/دار الكتاب العربي بدون تاريخ .
- المفردات للراغب الأصفهاني ط/ دار الكتب العلمية ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧م.

خامساً: كتب منوعة

- [الله] كتاب في نشأة العقيدة الالهية أ. عباس محمود العقاد ط/ دار المعارف بمصر بدون تاريخ .
- أسس علم الاجتماع د/ حسن شحاته سعفان ط/ دار النهضة العربية الطبعة السادسة ١٩٦٥م.
- أصول الدعوة د/ عبد الكريم زيدان ط/ مؤسسة الرسالة الطبعة التاسعة ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.
- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب لعبد القادر البغدادي ط/ مكتبة الخانجي القاهرة الطبعة الرابعة ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م
- قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة لابن تيمية ط/ مكتبة الفرقان ـ عجمان الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م
- مجلة منبر الإسلام مقال التربية والأخلاق أ. محمد عطية الإبراشي العدد (٤) السنة (٢٠) ربيع الآخر١٣٨٢م سبتمبر ١٩٦٢م .
- مجلة منبر الإسلام مقال من أدب القصة في القرآن الكريم أ. البهي الخولي العدد (٥) السنة (٢٠) جمادى الأولى ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م .
- مقدمة ابن خلدون ط/ دار يعرب ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م
- نظرات في الإسلام د / محمد عبدالله دراز ط/ المكتب الفني للنشر الطبعة الأولى ١٣٧٧هـ / ١٩٥٨م .

فهرس الموضوعات

م	الموضوع	رقم الصفحة
١	المقدمة .	٨١
٢	التمهيد .	٨٥
٣	المبحث الأول: ماهية الرقابة .	٨٩
٤	المطلب الأول: الرقابة في اللغة، ومواردها في القرآن الكريم	٩٠
٥	المطلب الثاني: مفردات قريبة الدلالة في القرآن من الرقابة.	٩٥
٧	المطلب الثالث: تحرير معني الرقابة .	١٠٠
٨	المبحث الثاني: أنواع الرقابة في القرآن الكريم .	١٠٣
٩	المطلب الأول: الرقابة العليا .	١٠٤
١٠	المطلب الثاني: الرقابة النفسية .	١١٢
١١	المطلب الثالث: الرقابة العلمية .	١١٦
١٢	المطلب الرابع: الرقابة المجتمعية .	١٢٤
١٣	المبحث الثالث: صور عاقبة الرقابة في القرآن الكريم .	١٣٠
١٤	المطلب الأول: الصور الهالكة .	١٣١
١٥	المطلب الثاني: الصور الناجية .	١٣٦
١٦	الخاتمة .	١٤١
١٧	المراجع .	١٤٣
١٨	فهرس الموضوعات	١٤٦